

الباب الرابع

الآخرة

البعث

يقول الإمام الطحاوى (ونؤمن بالبعث، وبجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط، والميزان يوزن به أعمال المؤمنين من الخير والشر، والطاعة والمعصية، والجنة والنار مخلوقتان لا يفنيان ولا يبیدان، وإن الله تعالى خلق الجنة والنار وخلق هما أهلا، فمن شاء إلى الجنة أدخله فضلا منه ومن شاء منهم إلى النار أدخله عدلا منه، وكل يعمل لما قد فرغ منه، وصائر إلى ما خلق له.

فائدة الدعاء للأموات

وفى دعاء الأحياء للأموات وصدقته منفعه للأموات، والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضى الحاجات)

نتحدث هنا عن البعث بما يتضمنه من الجزاء على جانبيه: فى الجنة أو فى النار .

ففى صحيح البخارى بسنده عن عدى بن حاتم قال قال رسول الله "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة"، وفى رواية أخرى زاد فيه "ولو بكلمة طيبة".

وقد تحدثت سورة الصافات عن أن المنكرين للبعث - فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وكذلك فى جميع العصور - يحركهم لذلك استخفاف سلوكى، مقرون بخفة عقلية .

وقد جاء ذلك ضمن قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿٦٩﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ أَمْ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْمَاءُ لَمَبْعُوثُونَ ﴿٧١﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْآلُوفُونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

فهم أمام أخطر المسائل: يتضحكون ويسخرون، ويتنادون لإشاعة السخرية بين الناس .

وهم أمام حقيقة البعث الذى هو جزء من حقيقة الخلق: يتعلمون، أو يتغابون إذ يزعمون: ﴿إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٢﴾﴾ .

وقد استدلل القرآن الكريم على البعث بالأدلة العقلية لمن يريدونها حيث ركزها فى آخر سورة يس:

﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٣﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ : فالقادر على البدء قادر على الإعادة .

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٧٥﴾﴾ : فهو القادر على أن يخرج - تحت أعينكم - الشيء من نقيضه .

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴿٧٦﴾﴾ : فالقادر على الأكبر قادر على الأصغر .

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٧﴾﴾ : فهو الخالق بغير احتياج إلى مادة أو زمن .

إن المنكرين يبنون موقفهم على الزعم بأن العقل البشرى من حقه أن ينكر ما لا يعرفه .

ويرد القرآن على أمثال هؤلاء، حيث يلفت أنظارهم إلى أنهم يعرفون الكثير من أمثال البعث فى بيئتهم: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿٧٨﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٦﴾
٥-٧ الحج .

وتلفت سورة الصافات أنظارهم إلى حقيقة الخلق في أنفسهم وفي العالم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾

فهل ينكر العقل حقيقة الخلق لأنه لا يمكنه أن يعرف كيف يتم التخليق؟

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿١﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ .

فلينظر الإنسان إلى خروج العسل من النحل .

وإلى خروج اللبن من الثدي .

وإلى خروج الشجرة الخضراء من بين الماء والطين .

وإلى خروج الزهرة الملونة من الشجرة الخضراء .

وإلى خروج الفاكهة الحلوة من فم الزهرة الوداعة .

وإلى الأظافر تنبت على أطراف الأصابع .

وإلى الشعرة السوداء تخرج من جلد الرأس .

فلينظر الإنسان إلى الأرض تدور في فلكها حول الشمس .

وإلى الشمس تدور في فلكها مع المجموعة الشمسية حول مركز في المجرة .

وإلى المجرة تدور في فلكها المرسوم بين المجرات الدائرة .

﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ من خلقنا من بين الأمثلة التي تزخر بها

الحياة، وتزخر بها الطبيعة . وهي بعث كلها؟!

لو أن إنساناً لم ير العسل يخرج من النحل أكان يجوز لعقله أن ينكره؟

أكان يمكن لعقله أن يتصوره؟ أكان يمكن لعقله أن يقترحه؟ أكان يمكن لعقله

أن يصممه، وأن يضع له أسبابه وأن يستخرج منه نتائجه؟

أكان يجوز لعقله أن ينكره لأنه يعجز عن ذلك كله؟

لكن ذلك كله رأيناه ونراه يحصل مرات ومرات؟ وكيف يصح القول بأن الذى لا نراه غير معقول ونرمى الكلام عنه بالسحر، فإذا حصل مرة أو مرات صار معقولا؟

يقول الدكتور نورمان بريلى أستاذ علم الحيوان بجامعة ماكجيل بمونتريال بكندا فى كتابه " بزوغ العقل البشرى ": (إن الطفل حديث الولادة يبدو على الدوام من المعجزات لكل من يقع نظرهم عليه لأول مرة ... فهم يرونه ماثلا أمام أعينهم بوجوده الحاضر وإمكاناته الرهيبة ...)

إن العلم التجريبي نفسه يقدم لنا ظواهر يعرفها العلماء ويتعاملون معها دون أن يعرفوا سر الصنعة فيها: فى بناء الذرة، فى ظاهرة الضوء، فى ظاهرة الجاذبية، فى بناء الحياة، فى بناء الفلك، فى عملية الذكاء، فى عملية الوعي، فى عملية التذكر، فى عملية التخيل .

فى كل ذلك وغيره يمكن للعلماء أن يقوموا بدور الوصف لما يحدث، لكنهم لا يمكنهم أن يقوموا بدور التفسير أو التعليل .

والذى يصر على الإنكار لكل ما لا يعرف سر وجوده أو سر صنعته لا يمكنه أن يمارس الحياة .

إنه ليكون الأحق بالسخرية، إذ يكون أشبه بالنحلة التى ترفض الزهرة وتنكرها ولا تتعامل معها: لأنها لا تعرف مراحل إنتاج الزهرة . أو لأنها لا تتصور القصر الذى توجد فيه .. أو الأرض .. أو الشمس .. أو النهر .. أو الإنسان ..

كل أولئك الذين كان لهم دور فى إنتاج الزهرة .

ومن أنكر هذه الحقائق ولم يتعامل معها لأنه لا يعرف سر خلقها هو إذن عقل مريض فى نفس مريضة .

إن قدرة الله ... إن أحداث الطبيعة ... إن حقائق الخلق والإبداع، ما نرى منه وما لا نرى لا يخضع شئ منه لهذه العقول فى تلك النفوس ... إنه إنما يخضع لمن أحاط بعلمه وإرادته وإبداعه كل شئ

وهو سبحانه يضع أمامنا حقيقة البدء إجمالاً لنسلم عن طريقها بحقيقة الإعادة إجمالاً، أى يارجاع الأمر كله إلى ظاهرة الخلق والإعادة، تلك الظاهرة الواقعة تحت أنظارنا فى كل حين:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ١٩

العنكبوت

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٢٠ العنكبوت، ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ ٢٩ الأعراف، ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ ١٠٤ الأنبياء

﴿ إِنَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ٤ يونس، ﴿ اللَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ٣٤ يونس، ﴿ اللَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ١١ الروم، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ٢٧ الروم

﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْحِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ٧٩-٨٥ المؤمنون

تلك الآيات جميعاً تبرهن لنا على صحة البعث عن طريق النظر فيما يحدث أمامنا فى الواقع، وليس عن طريق الدخول فى مباحكات فلسفية

والواقع الذى يحدث أمامنا يرد على شبهات بعض الفلاسفة حيث يبين أن الشخص منا يستمر، وتستمر معه مسئوليته الأخلاقية، لأنه يظل هو هو طوال عمره بالرغم من أن جسده يتبدل ويتغير وينبعث جديداً باستمرار. بل نقول إنه - ما دمنا نتحدث عن الجسد - يموت باستمرار، ويبعث باستمرار.

وما أدق قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾: إنه يموت الآن وفى كل لحظة

ومن منا لا يعترف - إن أنعم النظر في صور مسجلة من مسيرة حياته - : أن الجنين الذى كان مات ثم انبعث الطفل، وأن الطفل مات ثم انبعث الغلام، وأن الغلام مات ثم انبعث الشاب، وأن الشاب مات ثم انبعث الكهل، وأن الكهل مات ثم انبعث الشيخ، وأن الشيخ يقترب من نفس عتبة: الموت والانبعاث .
وهذا دليل أنه يبعث الآن - بعثا دنيويا - في كل لحظة .

فهل ما زلنا بحاجة إلى دليل واقعى على البعث.

أليس هذا تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّكُمْ وَنُنْقِزُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۝ الْحَجَّ .

يقول الدكتور نورمان بريل - الذى سبقت الإشارة إليه - (فجسمك الحالى الذى يبلغ وزنه بين ٤٥ - ٩٠ كيلو جم أو أكثر . ليس هو الجسم الذى كان لك منذ وقت مضى، فكل نسيج وكل خلية إما أن يعاد بناؤهما، وإما أن يستبدلا على وجه الاطراد، سواء في ذلك الجلد أو الدم، أو الشعر، أو العظام).

ثم يقول: (وأعجب شئ في ذلك كله أنه بالرغم من هذا التبدل المستمر في المادة التى يتكون منها جسمى فإننى أحس بأن شخصيتى ظلت مستمرة لم يطرأ عليها تبدل مناظر، ولا يزال الأصدقاء الذين كنت أقابلهم منذ عشرات السنين يعرفوننى)^(١)

واخبر القرآن الكريم عن بعث وقع:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمُتُؤْمِنٌ قَالَتْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لَّيَطْمَأَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ٢٦٠ البقرة

(١) بزوغ العقل الابشرى ص ١٣

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّيْغَةُ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ البقرة
وما جاء عن إحياء الموتى على يد المسيح ﴿وَأُخِي أَلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٤٩﴾ آل
عمران.

وما جاء عن أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا
تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴿٢٥﴾ الكهف.

وعن الذي مر على قرية وهى خاوية على عروشها ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُخَيِّرُ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ
مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴿٢٥٩﴾ البقرة.

إن الإخبار بالبعث كما جاء فى رسالة الأنبياء عليهم السلام هو نوع من الإنذار
لا يصح للعقل البشرى أن يتردد فى التعامل معه والإيمان به، بشروط عملية وإلا
كان مرتكبا لأشد أنواع الحماقة فيما يختص بمصيره الذاتى، ومصلحته الشخصية، كما
هو الشأن فى أى إنذار، وبالتالى فى أخطر إنذار

إن التصديق إزاء الإنذار - بشروطه - يصنع موقفاً يتلخص فى كلمتين:
التصديق أو التكذيب.

التكذيب كما صنع أبو لهب

أو التصديق كما فعل أبو بكر .

وعلى كل أن يتحمل تبعه موقفه؟!

وتتلخص شروط التسليم للإنذار وفقاً للمنهج العملى: فى أربع قواعد:

القاعدة الأولى: فى طبيعة الإنذار

القاعدة الثانية: فى مصدر الإنذار

القاعدة الثالثة: فى مورد الإنذار

القاعدة الرابعة: فى حامل الإنذار

أما عن القاعدة الأولى: فتعنى أن يكون هو الإنذار الأكبر، بمعنى أنه إذا تكررت الإنذارات كان للأكبر فيها أن يلغى الأصغر، وهنا نجد أن الإنذار الذى جاء فى رسالة الرسل الذين يمثلهم محمد صلى الله عليه وسلم هو الإنذار الأكبر على وجه الإطلاق، لكونه يضع أمامك التهديد بالعذاب الأكبر الخالد الأبدى ويعدك بالنعيم الأبدى .

قال الحسن البصرى فى قوله تعالى: ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾: والله ما أنذر العباد بشيء قط أدهى منها. خرج ابن أبى حاتم (ابن حبان)، وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿ إِنِّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ يعنى النار

وأما عن القاعدة الثانية: فتعنى أن يكون مصدر الإنذار هو المنذر الأكبر - ولو على قاعدة الافتراض - وهنا نجد فى رسالة الرسل أن الإنذار الذى جاءوا به لم يكن هو الإنذار الأكبر فحسب، ولكنه جاء صادرا من المنذر الأكبر، لأن الذى أصدره موصوف بأنه مالك الملك مالك يوم الدين، هو الموصوف بصفات الكمال على الإطلاق ولا يوجد فى ساحة الإنذارات المتعارضة إنذار جاء من مثله .

وأما عن القاعدة الثالثة عن مورد الإنذار: فتعنى أن لا يطلب منك الإنذار أن تقوم بعمل لا تملك منه شيئا بأن كان لا يتفق مع فطرتك، كأن يطلب منك الإنذار أن تحمل فوق كتفك عشرة أطنان، وإلا أعدمك، فهذا إنذار ساقط عمليا، وأجدر به أن يكون حكما بإعدامك منذ الآن، وليس عملا مطلوباً منك أن تقوم به، وهنا نجد فى رسالة الرسل - فى حدود ما نعرفه عن محمد صلى الله عليه وسلم - أنهم جاءوا إليك بإنذارهم ليطلبوا منك ما يتوافق مع فطرتك أولا ﴿ لَا يُكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، وما يتحرك بك إلى الأفضل ثانيا، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾

أما عن القاعدة الرابعة: فتعنى أن يكون حامل الإنذار نموذجا لتطبيق واجبات الإنذار وآدابه، وهنا نجد فى رسالة الرسل: أنهم إذ جاءوا بالإنذار الأكبر من المنذر الأكبر كانوا وهم حملته يمثلون المثال الواقعى لهذا التطبيق، لقد كان رسول الله صلى

الله عليه وسلم على مستوى الإنذار الذى جاء به، وهنا تنطق سيرته صلى الله عليه وسلم باكتمال الشرط المطلوب فى هذه القاعدة^(١).

إنه يكفى المنذر أن يكون قد أبلغك، وأنت بعد ذلك مسئول عن نفسك إذا صدقت فلنفسك، وإذا كذبت فعليها .

إن الإنذار هنا نوع من الكلام ربما كان على علماء البلاغة أن ينشئوا له نوعاً جديداً غير ما وضعوه من نوعى الإنشاء والخبر .

إنه ربما يوضع فى نوع جديد يسمى النوع الإنذاري

وهذا النوع الإنذاري لا يتعامل معه بغير التصديق بعد تحقق الشروط العملية السابقة

وقد حسم رجل مؤمن من آل فرعون القضية على أساس هذا المنهج إذ قال لقومه: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ ٢٨ غافر

ولقد حسم الإمام على رضى الله عنه الموقف فى هذا الباب بقوله لمن كان يماريه فى أمر الآخرة (إن كان الأمر كما زعمت تخلصنا جميعاً، وإن كان الأمر كما قلت هلكت ونجوت ..)

ومع ذلك يستمر إنكار المنكرين خضوعاً منهم للحالة النفسية التى يكشفها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ .

وهى حالة تدفع بهم إلى مقاومة الآيات باللجوء إلى السخرية:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٣٠﴾ أَوَدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾

(١) أنظر المزيد من شرح هذه القواعد فى كتابنا " فلسفة الإنذار "، وكتابنا " مداخل إلى العقيدة الإسلامية "

هكذا تأتي مقاومتهم للآيات في أسلوب ساخر، ومن هنا ساقى الآيات الحقيقة إليهم في صورة تقريرية مسوقة بالسخرية، أيضا: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾.

ثم يقول بعد ذلك: ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (١٦) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿.

عبر عن سوقهم إلى الجحيم بلفظ فاهدوهم: إمعانا في السخرية منهم .

وعبر عن كفرهم بأنهم ظلموا ؛ هكذا بأوسع إطلاق:

لأنهم ظلموا الله بعبادة الشريك . وظلموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب . وظلموا أنفسهم بإيرادها موارد الهلاك .

وإمعانا في سخرية يستحقونها قابل ظلمهم ذاك مع ما يوحى به من جبروت بأن فصل مظاهر صغارهم وحقارتهم في الآخرة، فقدمهم وهم يتلاومون في الموقف، وكل منهم يحاول أن يتنصل من مسئولية ما حدث، بينما حقائق الموقف محيطة بهم، لا يجدى فيها تلاوم، أو تناصر، أو مهرب:

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (١٧) مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴿ (١٨) بَلْ هُمْ آلِيَوْمٍ مُّسْتَسْلِمُونَ ﴿ (١٩) وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿ (٢٠) قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿ (٢١) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُّؤْمِنِينَ ﴿ (٢٢) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ﴿ .

وتحدث آيات القرآن الكريم في سورة الصافات في مجال الزواجر والجزاء ... عن عذاب النار ونعيم الجنة.

وهى تبادر إلى ذكر العذاب، جريا مع سياق النظام الكونى المجعول بوضعه تعالى، وهو من ثم يتناول الخارجين على النظام .

فالخارجون على النظام وإن لم يلحقهم عذاب فى الدنيا كعذاب الشياطين المسترقين للسمع ﴿ فَاتَّبِعْهُ شَيْهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ يؤول بهم الأمر بعد البعث إلى: ﴿ فَلِإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾.

وهم إذ يدخلون العذاب يدخلونه باقتناع ظاهر، من بعد، مساو لاقتناع كافر، كان مستورا من قبل. يقولون: ﴿فَحَقُّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾.

وهم يعترفون بأن دخولهم في العذاب إنما كان لأموار ارتكبوها:

منها الطغيان ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾.

ومنها الإغواء ﴿فَأَغْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غٰوِينَ﴾.

ومنها الاستكبار ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ومنها الشرك ﴿أَيْنَا لَنَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾.

وفى النهاية ﴿إِنْكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۝ وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وهنا لا ينتهى بهم المطاف بدخول النار، ولكنهم يكونون في موضع الانفضاح أمام من كانوا يهزءون بهم في الدنيا: ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ۝ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَأَلَّهَ إِنْ كِدَتْ لُذِينَ ۝ وَلَوْلَا بَعْمَةُ نَفَى لَكُنْتُ مِنْ الْمُحْضَرِينَ﴾.

وأخيرا فإن الآيات في تلك السورة - بعد أن تعطى لنا ملامح العذاب للمكذبين وللآخرة، الطاغين، المشركين، المستكبرين، الغاوين، تقرر أن عباد الله ناجون، حيث يقول تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمْ رِزْقُ مَعْلُومٍ ۝ فَوَكَّهُ ۝ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ۝ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ۝ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ الصافات ٤٠-٤٩

أهمية التذكير بالنار في المنظومة الإسلامية

تقوم التربية الإسلامية - والدعوة الإسلامية كذلك - على محور التذكير بالنار، وهو محور أساسى في المنظومة الإسلامية: عقيدة وشريعة وتربية ودعوة وأخلاقا .

خلافا لمن يبدون اليوم تأففا من هذا الأساس، باسم دعوات فارغة، متجاهلين

أن الدعوة الإسلامية في تركيزها على محور التذكير بالنار إنما تدخل من باب الرحمة بالإنسان: خوفاً عليه من أن يتعرض لحادث النار، وهو حادث ينتظم ضمن النظام الإلهي للكون، ولا منجاة لأحد منه إلا أن يلجأ إلى واضع هذا النظام وصانع سفينة النجاة فيه .

تؤكد الآيات القرآنية هذا التذكير

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ۝﴾
آل عمران ١٩٠-١٩٢

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوذِيكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝﴾
آل عمران ١٥-١٦

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝﴾ الفرقان ٦٣-٦٦

وقال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۚ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝﴾ المدثر ٣١-٣٧

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝﴾ المعارج ٢٧-٢٨

وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٢٥ ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ٢٦ ﴿فَمَرَّبَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السُّمُورِ﴾ الطور ٢٥-٢٧

قال بعض الصالحين: ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار، لأن أهل الجنة قالوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ فاطر ٣٤ ، وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة، لأنهم قالوا ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ الطور ٢٦

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يستعيذ من النار، ويأمر بذلك في الصلاة وغيرها والأحاديث في ذلك كثيرة .

قال أنس رضي الله عنه: كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ البقرة ٢٠١ ؛ خرجه البخارى .

وفي كتاب النسائي عن أبي هريرة أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (اللهم إني أعوذ بك من حر جهنم). وعن عدى بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (اتقوا النار) قال وأشاح ثم قال (اتقوا النار) ثم أعرض وأشاح ثلاثا حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال (اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة) خرجه في الصحيحين .

وخرج البزار والطبراني من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (أنا آخذ بحجزكم فاتقوا النار، اتقوا النار، اتقوا الحدود، فإذا مت تركتم، وأنا فرطكم على الحوض، فمن ورد قد أفلح، فيؤتى بأقوام ويؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: رب أمتي، فيقول: إنهم لم يزالوا بعدك يرتدون على أعقابهم .)

وخرج الطبراني وغيره من طريق يعلى بن الأشدق عن كليب بن حزن قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (اطلبوا الجنة جهدكم واهربوا من النار جهدكم، فإن الجنة لا ينাম طالبها، وإن النار لا ينام هاربها، وإن الآخرة

اليوم محفوفة بالمكاره، وإن الدنيا محفوفة باللذات والشهوات، فلا تلهينكم عن الآخرة).

وخرج مسلم في صحيحه من حديث أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ("والذى نفسى بيده لو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا" قالوا: وما رأيتم يا رسول الله قال "رأيت الجنة والنار").

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لما كسفت الشمس رأيتم النار، فلم أر منظرا كالיום قط أفضع منها).

وفي التخويف من النار للحافظ ابن رجب الحنبلى: أنه روى الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا (لو أبرزت النار للناس ما رآها أحد إلا مات) وروى موقوفا.

وفيه أنه خرج أبو يعلى الموصلى فى مسنده وغيره من حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه خطب فقال: (لا تنسوا العظيمتين الجنة والنار)، ثم بكى، حتى جرت وبلت دموعه جانبى لحيته، ثم قال (والذى نفس محمد بيده لو تعلمون ما أعلم عن الآخرة لمشيتم إلى الصعدات، ولحيتهم على رؤوسكم التراب).

وفي المستدرک على الصحيحين للحاكم بسنده عن زياد بن أبى سودة قال: كان عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه على سور بيت المقدس الشرقى يبكى، فقال بعضهم: ما يبكيك يا أبا الوليد؟ فقال من ها هنا أخبرنا رسول الله أنه رأى جهنم، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وفي سنن أبى داود و ابن ماجه عن جابر: " أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل كيف تقول فى الصلاة؟ قال أتشهد ثم أقول "اللهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ"، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم " حولها فدنندن^(١)"، وخرجه البزار ولفظه " وهل أدندن أنا

(١) الدندنة: التللف بصوت خفيض بكلمات غير واضحة فى السمع، وحولها أى: حول النار.

ومعاذ إلا لندخل الجنة، ونعاذ من النار"، وفي مسند الإمام أحمد مثله، بإسناد منقطع عن سليم الأنصاري .

وروى ابن رجب في كتابه " التخويف من النار " بسنده عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: قال (إنما يدخل الجنة من يرجوها، ويجنب النار من يخافها، وإنما يرحم الله من يرحم) وخرجه أبو نعيم وعنده: " وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ".

وهو إنذار الرحيم وتحذير الحفيظ العليم:

إنه ما أكذب هؤلاء الذين يتظاهرون بالرحمة عن طريق الاستنكاف من ذكر النار.

وما أصدق الحكمة السائرة:

صديقك من صدقك لا من صدقك

من أضحكك أضحك الناس عليك، ومن أبكاك أبكى الناس من أجلك .

وينقلنا ذلك إلى ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها)

وفي رواية لمسلم بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثلى كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب .. يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها، قال فذلكم مثلى ومثلکم أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها).

وفي رواية للإمام أحمد بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مثلى ومثلکم أيتها الأمة كمثل رجل أوقد نارا بليل، فأقبلت إليها هذه الفراش والذباب التي تغشى النار، فجعل يذبحها ويغلبها إلا تقحما في النار، وأنا آخذ بحجزكم أدعوكم إلى الجنة، وتغلبوني إلا تقحما في النار) .

وخرج الإمام أحمد أيضا من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله

وسلم قال: (إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإنى آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش والذباب)

والخوف من عذاب الآخرة لا ينجو منه أحد، ولو كان من المقربين، حتى الأنبياء والملائكة .

فقد توعّد الله سبحانه خاصة خلقه على المعصية قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۚ آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾
الإسراء ٣٩

وقال في حق الملائكة المكرمين: ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ ۖ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ الأنبياء ٢٩

وفي صحيح البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: (استب رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود، قال المسلم: والذى اصطفى محمداً على العالمين، فقال اليهودى: والذى اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودى، فذهب اليهودى إلى النبى فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبى المسلم، فسأله عن ذلك، فأخبره، فقال النبى: لا تخيرونى على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلى، أو كان ممن استثنى الله) .

وفي رواية أخرى للبخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال: (بينما رسول الله جالس جاء يهودى، فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهى رجل من أصحابك، فقال: من؟ قال رجل من الأنصار، قال: ادعوه، فقال: أضربته؟ قال: سمعته بالسوق يحلف والذى اصطفى موسى على البشر، فأخذتنى غصبة ضربت وجهه، فقال النبى: لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق أم حوسب بصعقة الأولى) .

قال الحافظ ابن رجب في كتابه "التخويف من النار": وثبت من حديث عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الشفاعة قال (فيأتون آدم) - أى يطلبون منه أن يتقدم بطلب الشفاعة -، وذكر الحديث وقال: (فيقول آدم إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه أمرنى بأمر فعصيته فأخاف أن يطرحنى في النار، انطلقوا إلى غيرى نفسى نفسى) وذكر في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى مثل ذلك، كل منهم يقول: (إنى أخاف أن يطرحنى في النار) أخرجه ابن أبى الدنيا عن أبى خيثمة عن جرير عن عمارة به، وأخرجه مسلم في صحيحه عن أبى خيثمة إلا أنه لم يذكر لفظه بتمامه، وأخرجه البخارى من وجه آخر بغير هذا اللفظ .

وفي كتاب ابن رجب قال: قال عمر رضى الله عنه: (لو نادى مناد من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم، إلا رجلا واحدا لحقت أن أكون أنا هو) أخرجه أبو نعيم، وأخرج الإمام أحمد من طريق عبد الله بن الرومى قال: بلغنى أن عثمان رضى الله عنه قال (لو أنى بين الجنة والنار ولا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى لا اخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير)

إن تراثنا من عصر بناء أمتنا في عصورها المجيدة المليء بالخوف من النار، حيث تم صنع ضمير هذه الأمة القائم على التقوى، رغم أنف المعادين لهذا المنهج وجهلهم بأسسه:

ففى كتاب الحافظ بن رجب الحنبلى "التخويف من النار" رواية عن الحسن قال: كان عمر رضى الله عنه ربما توقد له النار ثم يدنى منها يديه، ثم يقول لنفسه: (يا ابن الخطاب هل لك على هذا صبر)

وفيه عن ابن السماك قال: قطع قلوب العارفين بالله ذكر الخلودين الجنة والنار . وفيه عن بكر المزنى أن أبا موسى الأشعرى خطب الناس بالبصرة فذكر في خطبته النار، فبكى حتى سقطت دموعه على المنبر، قال: وبكى الناس يومئذ بكاء شديدا .

وفيه عن إبراهيم بن محمد البصرى قال: (نظر عمر بن عبد العزيز إلى رجل عنده متغير اللون، فقال له: ما الذى أرى بك؟ قال: أسقام وأمراض يا أمير المؤمنين إن

شاء الله، فأعاد عليه عمر، فأعاد عليه الرجل مثل ذلك ثلاث مرات، فقال: إذا آبيت إلا أن أخبرك فإني ذقت حلاوة الدنيا، فصغر في عيني زهرتها وملاعبها، واستوى عندي حجارتها وذهبها، ورأيت كأن الناس يساقون إلى الجنة، وأنا أساق إلى النار، فأسهرت لذلك ليلي، وأظلمات له نهاري، وكل ذلك صغير حقير في جنب عفو الله وثواب الله عز وجل، وجنب عقابه .

وهذا الكلام - كما يقول الإمام ابن رجب - يشبه حديث حارثة المشهور وهو حديث روى من وجوه مرسل، وروى مسندا متصلا من رواية يوسف بن عطية الصفار وفيه ضعف عن ثابت عن أنس: (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لشاب من الأنصار: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال أصبحت مؤمنا بالله حقا، قال: انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة، قال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظلمات نهاري، وكأني بعرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتعادون فيها، قال أبصرت فالزم، عبدُ نور الله الإيمان في قلبه)، والمرسل أصح.

وفيه: وقال أحمد بن أبي الخوارى حدثنا علي بن أبي الحر قال: أوحى الله إلى يحيى بن زكريا عليه السلام: يا يحيى وعزتي لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب جسمك، ولزهقت نفسك اشتياقا، ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لبكيت بالصدید بعد الدموع، وللبست الحديد بعد المسوح .

وفيه أنه ذكر ابن أبي الدنيا بإسناده عن سفيان قال: كان عمر بن عبد العزيز ساكتا وأصحابه يتحدثون، فقالوا: ما لك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت مفكرا في أهل الجنة، كيف يتزاورون فيها، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها ثم بكى .

وفيه عن مغيث الأسود أنه كان يقول: (زوروا القبور كل يوم بفكركم، وتوهموا جوامع الخير كل يوم في الجنة بعقولكم، وشاهدوا الموقف كل يوم بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة والنار بهممكم، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار، ومقامعها، وأطباقها) .

وفيه عن صالح المري أنه قال: (للبيضاء دواعى الفكرة فى الذنوب، فإن أجابت على ذلك القلوب، وإلا نقلتها إلى الموقف، وتلك الشدائد والأهوال، فإن أجابت إلى ذلك، وإلا فاعرض عليها التقلب بين أطباق النيران) .

وفيه عن أبى سليمان الدارانى: قال خرج مالك بن دينار بالليل إلى قاعة الدار، وترك أصحابه فى البيت، فأقام إلى الفجر قائما فى وسط الدار، فقال لهم: إني كنت فى وسط الدار خطر ببالى أهل النار، فلم يزلوا يعرضون على بسلاسلهم وأغلالهم حتى الصباح .

وفيه أنه كان سعيد الجرمى يقول فى وصف الخائفين: (إذا مروا بآية من ذكر النار صرخوا منها فرقا، كأن زفير النار فى آذانهم، وكأن الآخرة نصب أعينهم) .

وفيه أنه قال الحسن: (إن الله عبادا كمن رأى أهل الجنة فى الجنة مخلدن، وكمن رأى أهل النار فى النار معذبين)، وقال أيضا:

(والله ما صدق عبد بالنار قط إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وإن المنافق لو كانت النار خلف ظهره لم يصدق بها حتى يهجم عليها) .

وفيه أنه قال ابن عيينة، قال إبراهيم التيمى: (مثلت نفسى فى الجنة أكل من ثمارها وأعانت أبقارها، ثم مثلت نفسى فى النار أكل من زقومها وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسى: أى شيء تريدن؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا، قال فقلت: فأنت فى الأمانة، فاعمل) .

وفى حلية الأولياء لأبى نعيم بسنده عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: (قلت ليزيد بن مرثد: مالى أرى عينك لا تحجف؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى الله أن ينفعنى به قال: يا أخى إن الله قد توعدنى إن أنا عصيته أن يسجننى فى النار، والله لو لم يتوعدنى أن يسجننى إلا فى الحمام لكنت حريا أن لا تحجف لى عين، قال: فقلت له: فهكذا أنت فى خلواتك؟ قال وما مسألتك عنه؟ قلت عسى الله أن ينفعنى به، فقال: والله إن ذلك ليعرض لى حين أسكن الى أهلى، فيحول بينى وبين ما

أريد، وإنه ليوضع الطعام بين يدي، فيعرض لي، فيحول بيني وبين أكله، حتى تبكى امرأتى، ويبكى صبياننا، ما يدرون ما أبكانا، ولربما أضجر ذلك امرأتى، فتقول: يا ويحها ما خصصت به من طول الحزن معك في الحياة الدنيا، ما تقر لي معك عين) .

وفي التخويف من النار لابن رجب: قال يوسف بن عطية عن المعلى بن زياد: كان هرم بن حيان يخرج في بعض الليالي وينادى بأعلى صوته: عجبت من الجنة كيف نام طالبها، وعجبت من النار كيف نام هاربها، ثم يقول: ﴿ أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ الآية الأعراف ٧٩ .

وقال أبو الجوزاء: (لو وليت من أمر الناس شيئاً اتخذت منارا على الطريق وأقمت عليها رجالا ينادون في الناس: النار النار، خرج الامام أحمد في كتاب الزهد) .

وخرج ابنه عبد الله في هذا الكتاب أيضا باسناده عن مالك بن دينار قال: "لو وجدت أعوانا لناديت في منار البصرة بالليل: النار النار". ثم قال: "لو وجدت أعوانا لفرقتهم في منار الدنيا: يا أيها الناس النار النار"

فأين نحن اليوم من هذا المنهج وهذه التربية؟ ثم نتباكى على اللبن المسكوب ونتساءل في بلاهة: ماذا حدث؟

حدث أن خلعنا ذاتنا فوق بعضنا في تيه البحث عن الذات، وخبط المذاهب والضلالات .

المنطق العملي في الإنذار

هكذا تم بناء الأجيال البناءة التي أقامت الحضارة الإسلامية في صدر الإسلام، ثم تسرب إليهم المنهج الفلسفي اليوناني مع الغزو الفكري في مرحلته الأولى . وتم بذلك جزء من تزييف وعى المسلم ووجدانه وإبعاده عن منهله الصحيح، واستمر هذا التزييف إلى اليوم، وترتب على هذا التزييف التعقيم على ذكر النار . وتسخيف الوعاظ الذين يشغلون الناس بها .

تم تزيف العقل الإسلامى بجره إلى التأثير الكلامى الفلسفى بمشوار عقلى طويل: له صعوبته، وله سلبياته أيضا^(١)

مشوار طويل: فى البحث فى العقل نفسه كأداة للمعرفة، وشروطه، وميادينه ونتائجه، والبحث فى أول واجب على المكلف، هل هو النظر أو الشك؟ ثم البحث فى العالم هل هو قديم أو حادث، فإذا كان قديما كيف يكون مخلوقا، وإذا كان حادثا كيف حدث بغير تغير فى الذات الإلهية؟ فى إثبات أن كل حادث لا بد له من محدث، وأن مالا يخلو من الحوادث فهو حادث، وفى إبطال الدور والتسلسل. وفى صفات الله وعلاقتها بالذات، وفى دلالة المعجزة: هذا كله قبل الإيهان بالسمعيات ومنها الآخرة والجنة والنار؟؟

وكان لا بد من نقد هذا المنهج النظرى وفى هذا يقول الفيلسوف الألمانى الشهير كانت فى نقده للعقل النظرى "لا ينبغى أن نقلل من الخدمات التى يقدمها النقد إلى علم اللاهوت، فهو يحرره من حكم التأمل الدجاطيقى، وبذلك يضعه فى مأمن تام بعيدا عن ضربات الخصوم، ولقد كانت الميتافيزيقا الداريجة تمنيه بأن تمد إليه يد المساعدة، ولكنها كانت غير قادرة على الوفاء بعهدتها، وفضلا عن ذلك فإن علم اللاهوت الذى يريد أن يستعين بالدجاطيقية كان يساعد أعداءه على التسلح ضده"^(٢)

كان لا بد من نقد هذا المنهج النظرى الذى عطل السمعيات منهجيا إلى آخر المطاف، بينما أن الذاتية الإسلامية اعتمدت على شيء مختلف تماما: على المنهج العملى، العقل العملى، منذ البداية التى كان فى أولها الإنذار بالنار .
إننا سوف نبين هنا^(٣) أن ما جاء فى العقيدة الإسلامية من الإنذار بالنار يقدم

(١) انظر كتابنا "الأسس المنهجية فى بناء العقيدة الإسلامية" فى نقد نظرية المعرفة عند المتكلمين، نشر دار الفكر العربى بالقاهرة .

(٢) انظر كتابه "مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن ان تصير علما" ترجمة نازلى إسماعيل حسين والدكتور عبد الرحمن بدوى، نشر دار الكاتب العربى للطباعة النشر ١٩٦٨ م

(٣) أنظر كتابنا "الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية" نشر دار الفكر العربى بالقاهرة عام ١٩٧٨، وكتابنا "فلسفة الإنذار فى الإسلام" وكتابنا "مداخل إلى العقيدة الإسلامية" و "بحوث فى الفلسفة" لطلبة كلية أصول الدين، وغيرها

منهجاً أصولياً متكاملًا يقوم على النظرة العملية والتي لا صلة لها بمواريث الفلسفة اليونانية أو ما يسمى الفلسفة الإسلامية.

إنه المنطق العملي الذي جاء به الإسلام وربى عليه أتباعه الذين قاموا بأعباء الدعوة وبناء المجتمع والحضارة ..

في قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه النسائي في السنن الكبرى بسنده عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "اللهم إني أسألك علماً نافعاً وأعوذ بك من علم لا ينفع"

وبسنده عن مكحول أنه دخل على أنس بن مالك فسمعه يذكر أن رسول الله كان يدعو يقول "اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وارزقني علماً تنفعني به".

وفيما رواه مسلم في صحيحه بسنده عن زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله يقول، كان يقول (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها).

وفيما جاء من نبيه صلى الله عليه وسلم عن الجدل النظري حول القضاء والقدر، فيما رواه البخاري بسنده عن علي رضي الله تعالى عنه قال: (كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأثانا رسول الله، فقعّد وقعدنا حوله، ومعه مخضرة فنكس فجعل ينكت بمخضرته، ثم قال: ما منكم من أحد وما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة، قال رجل: يا رسول الله؛ أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ قال: أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ: فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل فسنيسره للعسرى)

وفي رواية أخرى له زاد (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)

وفيما رواه الترمذى فى سننه بسنده عن على قال: بينما نحن مع رسول الله وهو ينكت فى الأرض إذ رفع رأسه إلى السماء ثم قال: " ما منكم من أحد إلا قد علم - وقال وكيع إلا قد كتب - مقعده من النار، ومقعده من الجنة، قالوا أفلا نتكل يا رسول الله قال: لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

وفيما جاء فى المأثور من تراثنا وهو فى رأينا يمثل نظرية كاملة فى المعرفة: (العلم يهتف بالعمل فإن أجاب حل، وإلا ارتحل) (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، ووقفه الله فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما علم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار)

وفى حلية الأولياء لأبى نعيم بسنده عن يحيى بن معين عن أحمد بن حنبل عن يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال " من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم " .

قال الشيخ أبو نعيم رحمه الله: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبى صلى الله عليه وسلم فوضع هذا الإسناد عليه لسهولة، وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل

وليس هذا المنطق العملى مخفوفاً بالخطر أو الشك أو الضعف، الذى قد يقع فيه أتباع العقل النظرى .

إن هؤلاء يقصمون ظهورهم بأوزار العقل النظرى وأثقالة التى حررنا الله منها، فى قوله تعالى فى سورة الانشراح (ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك)

إن أصحاب العقل النظرى يعصبون أعينهم بغشاوة العقل النظرى التى يشير إليها قوله تعالى فى سورة يس وهو يتحدث عن طبيعة الإنذار ﴿يَسْ وَالْقُرْآنِ

الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٤﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٧﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٨﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ يس ١-١٢

وأية أغلال وأية سدود وأية أوزار وأية أثقال إن لم تكن هى الأنظار والتأملات التى يشترط عليك (النظريون) خوضها من خلال ركام فلسفات سقراط وأفلاطون وأرسطو والفارابى وابن سينا وابن رشد والقاضى عبد الجبار والعلامة عضد الدين؟ تلك التى خضعنا لسلطتها زمنا طويلا؟ وما نزال؟

إن طبيعة العقل النظرى وجدليته وسجن الذاتية الذى هو واقع فيه ناشئة بالضرورة عن محدوديته

إنها محدودية العقل البشرى المستقل، وهذا الأصل يستخلص بدهيا من طبيعة العقل البشرى من حيث كونه بشريا أى محدودا بحدود البشر فى قواهم المختلفة بالضرورة .

كما يستخلص من نقد العقل الخالص فى الفلسفة القديمة والإسلامية والحديثة .
كما يستخلص بدهيا من العقيدة الإسلامية بالنظر إلى اعتمادها على الوحي، ومن تفرد الرسول فى مخاطبته للعقل بالنسبة للفيلسوف .

كذلك فإنه يستخلص من رواد الفكر الإسلامى نفسه
والحد الذى يقف عنده العقل البشرى هنا هو الحد الذى يضمن له التواضع ويتطلب منه انتظار الهداية، ويسلك طريق المنطق العملى .

يقول الإمام الشاطبى (إن الله جعل للعقول فى إدراكها حدا تنتهى إليه ولا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلا إلى الإدراك فى كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت

مع البارى تعالى فى إدراك جميع ما كان وما لا يكون، وقد دخل فى هذه الكلية ذوات الأشياء جملة وتفصيلا، وصفاتها وأحوالها وأفعالها وأحكامها جملة وتفصيلا .

فالشئ الواحد من جملة الأشياء يعلمه البارى تعالى على التمام والكمال، بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أحواله .

بخلاف العبد فإن علمه بذلك الشئ قاصر ناقص^(١)

وكان المتكلمون وما يزالون يستندون إلى العقل النظرى وهو ما عرفوه بأنه: (قوة النفس باعتبار تأثيرها عما فوقها من المبادئ للاستكمال بالعلوم والإدراكات)^(٢)

ولكنهم مع ذلك كانوا يرون أنه فى الحكمة النظرية (التي هى كمال القوة النظرية بمعرفة أعيان الموجودات وأحوالها وأحكامها كما هى، أى على الوجه الذى هى عليه، وفى نفس الأمر ٠٠٠) لا بد من قيد هو (بقدر الطاقة البشرية)^(٣)

ومعنى هذا أنهم يقررون ضمنا أن القدرة البشرية عاجزة عن تحصيل الحكمة النظرية على الوجه المذكور، أى عاجزة عن تحصيل اليقين المطلق، لأن اليقين لا يكون بغير هذه الحكمة سواء كان ذلك فى المسائل التى يتعرض لها العقل البشرى فى مجموعها أو فى مسألة واحدة .

ومن المعروف أن اختبار صلاحية العقل للنظر فى الحكمة النظرية عملية موكولة للعقل البشرى نفسه حيث يكون هو الحاكم والمحكوم، وهذا يدل على بطلان هذا الاختبار منذ الخطوة الأولى .

ولا يكتسب هذا العقل شرعيته إلا بالاستناد على أساس سابق عليه، يؤخذ مأخذا تسليميا بحكم الضرورة العملية وبشروطها الخاصة، - التى ذكرناها سابقا - وهذا يسلمنا إلى اعتماد المنهج العلمى فى طرح الموضوعات العقدية وهو منهج

(١) الاعتصام للإمام الشاطبى ج ٣ ص ٢١٦

(٢) أنظر شرح المقاصد للإمام التفتازانى ج ٢ ص ٤٢ - ٤٤

(٣) أنظر شرح المقاصد للإمام التفتازانى ج ١ ص ٤٥

يعتمد على ما سماه المتكلمون فيما بعد العقل العملى وهو (قوة التصرف فى الموضوعات واستنباط الصناعات و تمييز المصالح من المفاسد لانظام أمر المعاش والمعاد)^(١)

والحد الذى يتوقف عنده العقل البشرى ولا يتخطاه هو التورط فى الموضوعات النظرية البحتة التى لا يترتب عليها عمل .

وهنا يأتى موضوع الآخرة - المعاد - فى صميم اختصاص العقل العملى .

وإذا كان من المتفق عليه إنسانيا أن المسائل العملية فى حياة الإنسان لا يجوز أن تطرح على مائدة العقل النظرى لما يؤدى إليه ذلك من تعطيل ودمار وخطر شديد على حياة الإنسان: كمسائل الحكم والسياسة والحرب والسلام والقضاء والأخلاق والعلاقات الاجتماعية والشخصية، فإن العقيدة الدينية أولى بأن تستنقذ من برائن هذا العقل، لما يترتب على ذلك من خطر أشد، وهى أولى بأن يعاد طرحها على مائدة العمليات فى دائرة اختصاص العقل العملى، إذ يقدم الدين نفسه - من خلال الإنذار بالآخرة - على أنه تخيير ملزم ضرورى، ولا يمكننا أن نتخلص من مشكلة الاختيار ببقائنا فى حالة شك وتردد مرتقبين اليوم الذى تأتى فيه أدلة أكثر وضوحا وأقوى يقينا، فليس الشك فى هذه الحالة تجنبا للاختيار ولكنه اختيار للجهة الأخرى عن غير وعى، وذلك بحكم الضرورة العملية .

وهذه هى وظيفة العقل العملى الذى يبدأ مع هذه الضرورة مستهدفا مجانبة الخطر، مصطحبا معه يقين النجاة منذ الخطوة الأولى، وفقا لقول سيدنا على كرم الله وجهه لمن كان يماريه فى أمر الآخرة (إن كان الأمر كما قلتَ تخلصنا جميعا وإن كان الأمر كما قلتَ هلكتَ ونجوتَ) مرتقيا من هذا المدخل إلى سكينه الإيمان وفق مراتب: منهج التسليم، ومنهج الإنذار، بشروط المنطق العملى التى ذكرناها سابقا^(٢)

(١) أنظر (النظر والمعارف) للقاضى عبد الجبار ص ١٤٢ - ١٦٤ - ١٨٥ - ٢٠٣، و (المحيط بالتكليف)

له ص ٢٢ - ٢٣ و (شرح المقاصد) للإمام التفتازانى ج ٢ ص ٤٥

(٢) أنظر مزيدا من توضيح ذلك فى كتابنا (مداخل إلى العقيدة الإسلامية)

والإسلام يبدأ وفقا لاسمه من التسليم . يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ١٩ آل عمران، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَنَقَبَةُ الْأُمُورِ ﴾ ٢٢ لقمان .

العقل النظري المسحور

إن طبيعة العقل النظري وجدليته وسجن الذاتية الذي هو واقع فيه تعجزه عن التفرقة بين الحق والباطل وهو أشبه في طبيعته بطبيعة السحر، حيث لا منطق يخرج بنا منه إلى الحقيقة إلا بضربة عملية من خارجه .

وهنا تأتى سيرة موسى عليه السلام مع فرعون بكاملها تقريرا لمأساة العقل النظري المسحور: في عجزه عن التفرقة بين الحقيقة التى تمثلها (الحية تسعى حقيقة) وبين الزيف (الحية تسعى سحرا)

وفى هذا جاءهم الحق فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ۝٧٦ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ يونس ٧٧

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ۝٧٧ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ۝٧٨ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ ۝٧٩

وما ذا يفرق بين الحق والسحر؟

إنه ضربة الفعل .

إنها كلمة الله الفاعلة ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَبُّطُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۝٨٠ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ يونس ٨١-٨٢

ثم يأتى قوله تعالى فى سورة الشعراء ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٨١ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ۝٨٢ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٣ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ الشعراء ٤٥-٤٨

ومنذ هذه الواقعة التاريخية التى انتصر فيها فرعون للسحر انحرف التاريخ الإنسانى إلى مسارب العقل النظرى .

إذا ما ذا لو أن فرعون قبل رسالة العمل والفعل والحق التى جاء بها موسى عليه السلام؟

إذن لتغير وجه التاريخ

إذن لكانت مصر قد تطهرت من أوهام الوثنية فى عهد مبكر وإذن لكانت قد تطهرت الإنسانية من أوهام العنصرية بذوبان اليهود فى أمة الإيمان المصرية الكبرى ..

وإذن لما عرفت الإنسانية شيئاً يسمى اليهودية أو الصهيونية

تلك فرصة أفلتت من قبضة التاريخ

إذن لتغير وجه التاريخ بالاستجابة لكلمة الله الفاعلة

إذن لاجتمع الحق مع القوة

ولكن مصر تقاعست وتراجعت وتأخرت وأسقطت تاريخها من عهد موسى إلى عهد محمد عليهما السلام .

وبين العصرين أفرخت اليهودية وأفرزت

أفرخت الصهيونية العنصرية العالمية بما اجتمع لها اليوم من ضلال الأصولية المسيحية الصهيونية العالمية .

وتكرس منذ ذلك الوقت انفصال الحق عن القوة .

وضياع القوة فى مسارب الباطل

وانفصال المنطق النظرى الواهم عن المنطق العملى الفاعل .

وفى هذا الطريق سار اليونان وسارت الحضارات الهيلينية والرومانية

وإلى هذا انحرف ما يسمى (الفلسفة الإسلامية) التقليدية، عند الفارابى وابن

سينا وابن رشد.

وماذا عن أتباع موسى عليه السلام من بنى إسرائيل؟

إنهم لم يكونوا في اتباعهم له يقفون على أرض صلبة من التوجه العملى لله تعالى وحده

إنهم تبعوه لعصبية وهمية عرقية قومية عنصرية

هكذا كانت بداية التجمع الإسرائيلى حول موسى قائمة على شفا جرف هار من ضلال . ذلك أنه كما يشير قول الله تعالى: ﴿ فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ ٨٣ يونس

هكذا كانوا متأثرين بدافع غريب يدفعهم إلى الإيمان بالله: هو العصبية العرقية: ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ وخوف غريب يدفعهم إلى الخوف من غير الله ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾.

وهنا يعلن لهم موسى عليه السلام عن الدافع الحقيقي الذى يجب أن يتجهوا إليه، وذلك فى قوله: ﴿ يَنْقُومُ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴾ ٨٤ يونس.

إن أصحاب المنطق النظرى هم الذين تقول عنهم سورة يس: ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

ومن ثم فهى تختصر لنا الطريق وترجع بنا إلى منطق الرسل:

منطق الإنذار

وهو منطق الوقائع العملية، ويبدأ معنا هذا المنطق من إعلان الخطر القادم ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثِرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿ ١١ - ١٢ يس

ومن هنا نقول: إن الطريق المعتمدة للوصول إلى معرفة الله ورسوله تقوم على المنطق العملى الذى يقره الإسلام .

وأن العقل الذى يعتمد على الإسلام هو ما يمكن أن نسميه "العقل العملي" الذى عرفه العلماء بأنه (قوة التصرف فى الموضوعات واستنباط الصناعات وتمييز المصالح من المفاسد لانتظام المعاش والمعاد)

إن الاعتقادات وفقاً للمنهج الإسلامى عمل أو وثيقة الارتباط بالعمل، فهى منذ اللحظة الأولى " فعل من أفعال العقل أو القلب وجزء أو شرط لأركان التصديق المنطقى " إيقاع النسبة بين المحمول والموضوع، وهى صيغة جمع لمفرد " الاعتقاد الجازم "، وهى تمثل بذرة نشوء علم الكلام الذى تمحور أساساً حول موضوع عملى هو " الأسماء والأحكام " وهى بعد ذلك تعنى " وضع الاستعداد " " اتباع الرسول " فى كل ما يأتى به، وهى تعنى وضع الاستعداد لاتخاذ سلوك معين إزاء خبر معين جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عالم الغيب

وفى هذا السياق يقول تعالى: ﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ۖ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبُونَ ﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿ ١٢ ﴾ يَطُوفُونَ بِنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿ ١١ ﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبُونَ ﴿ ٤١ - ٤٥ ﴾ الرحمن

وإذا كانت النار تعرف زبائنها كما تعرف الذرة جزيئاتها، والخلية جيناتها، فهى تعرف من ليسوا من هؤلاء الزبائن لتجنبهم: نظاماً كونياً محتوماً .

ففى صحيح ابن حبان فى باب ذكر سؤال النار ربه أن يخير من استجار به من النار، بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: " من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللهم أجره من النار " .

حدث كونى

إن ما جاء عن الإنذار بالنار فى العقيدة الإسلامية يبين أننا أمام حدث محكوم بميزان الله، مما يطلق عليه الناس قوانين الطبيعة، ونصحح القول فيه لنقول " قوانين الكون الموزون بميزان الله "

إن هذا الحدث مع كونه فى النهاية يمثل عقابا للكفار والعصاة فإنه مما يخشاه الملائكة والنبىون كذلك، مما يدل على صرامة قوانين الله، ونفاذ سننه فى الكون والوجود .

أنظر إلى ما ذكرناه سابقا من أن " الخوف من النار لا ينجو منه أحد "

ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ أَتَىٰ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴿٣٣﴾ ۝ ٢٤ البقرة .

ثم إلى قوله تعالى عما يعترى الجمادات ^(١) من خشية الله: ﴿ وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءً وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ البقرة ٧٤

إن هذا الحدث الكونى يقدم لنا المنطق العملى فى هلاك العصاة والكافرين: من حيث ما نجده من أن كل ما فى الوجود يتحرك حركته أو ينبغى له أن يتحرك فى سبيل الله، ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ١١ - ١٢ فصلت، وإشكالية الإنسان أنه أراد الله تكريمه وابتلاءه معا بأن يتحرك حركته فى سبيل الله - كما هو شأن المخلوقات جميعا - إلا أنه استثناء منهم أراد له أن تكون حركته باختياره .

وفى سبيل الله بالنسبة للإنسان تعنى أن يتحرك باختياره وفق إرادة الله فى الدين والأخلاق والشريعة والاقتصاد والعبادة، والاجتماع والتربية والأسرة إلخ، وكل نشاط إنسانى - فرديا كان أو اجتماعيا، أو دوليا، يخرج عما يريده الله وعما بينه رسله هو خارج سبيل الله، ليس هذا فحسب، ولكنه اعتداء على سبيل الله، اعتداء على سبيل الله الذى ينتظم الفلك والطبيعة والحياة والحضارة جميعا ^(٢) .

(١) للقارئ أن يستكمل النظرة هنا بما ذكرناه فى أول الجزء الخاص بالعبادة عن الوعى الكونى فى هذا الكتاب

(٢) أنظر تفصيلا لهذا الوضع الكونى فى بحثنا عن " النظام " ضمن كتابنا بعنوان " نحو منبر عصرى " نشر دار الكتاب الجامعى بالقاهرة نشر عام ٢٠٠١

ومن هنا فإن المخالفين يجدون أنفسهم في خلاف لا مع خالقهم فحسب، ولكن مع المخلوقات جميعا: مع الكون، مع الطبيعة، مع قوانين الله في الطبيعة، مع قوانين الكون المخلوق الموزون المحكوم: دنيا وأخرى، ولا منجاة لهم من سحق الكون لهم بالنار، إنها قوانين وسنن كقوانين التنفس وقوانين الجاذبية، أو أدق منها جميعا.

ومن هنا فإننا نرى النار تسعى إلى هؤلاء العصاة المخالفين، وتطلبهم طلبا طبيعيا، كما أنهم يتحركون نحوها حركة طبيعية كذلك، إن جهنم خلقت لتستقبلهم هناك في آخر طريق الانحراف، إنهم مطرودون من الكون وليس لهم مكان فيه غير النار، وذلك بعد أن أخذوا فرصة الهداية، والتوبة في هذه الدنيا فضيعوها.

إن هؤلاء المخالفين يجدون أنفسهم في صدام مع جميع المخلوقات، ويأتي الملائكة على رأس مخلوقات الله الذين يتصادمون معهم: يقول تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۖ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ ١٧-١٨ العلق، ويقول تعالى عن خزنة جهنم ﴿عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غَلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ٦ التحريم، ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ﴾ ٧٧ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ ٧٧-٧٨ الزخرف

النار هناك تنتظرهم، فهم وقودها: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ التحريم ٦ ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ السَّعِيرُ﴾ إذا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ٦-٨ الملك .

والنار تنتظرهم هنالك بكرامية: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١١-١٢ الفرقان ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ الكهف ٢٩ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ التوبة ٤٩

وفي مجمع الزوائد للهيثمي بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله: أنه قال لجبريل: مالي لا أرى ميكائيل ضاحكا قط؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت

النار. رواه أحمد من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين وهي ضعيفة وبقيّة رجاله ثقات

والنار تنتظرهم هناك بشراة: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ ١٤ الليل
وهي تستقبلهم بطول انتظار وترقب وشره: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ
وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ق ٣٠

ويشرح ذلك ما جاء في التخويف من النار لابن رجب: خرج ابن أبي حاتم [ابن
حبان] من حديث خالد بن دريك عن رجل من الصحابة قال: قال رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم: من تقول على ما لم أقل فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا، قيل يا
رسول الله وهل لها عينا؟ قال: نعم أو لم تسمع قول الله عز وجل: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ
مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ الفرقان ١٢.

وفيه أنه روى أبو يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:
"إن العبد ليجر إلى النار، فتشهوq إليه شهقة البغلة إلى الشفير، ثم ترفر زفرة لا يبقى
أحد إلا خاف". أخرجه ابن أبي حاتم

وفيه أنه خرج الإمام أحمد والترمذى من حديث الأعمش عن أبى صالح عن
أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يخرج يوم القيامة عنق من
النار، لها عينا تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق، تقول: إني وكلت بثلاثة:
بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين" وصححه الترمذى،
وقد قيل إنه ليس بمحفوظ بهذا الاسناد وإنما يرويه الأعمش عن عطية عن أبى
سعيد، فقد روى الأعمش وغير واحد عن عطية عن أبى سعيد عن النبى صلى الله
عليه وآله وسلم قال: "يخرج عنق من النار يتكلم، يقول وكلت اليوم بثلاثة، بكل
جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، ومن قتل نفسا بغير نفس، فتنطوى عليهم،
فتقدفهم فى غمرات جهنم". أخرجه الإمام أحمد .

وأخرجه البزار ولفظه "يخرج عنق من النار يتكلم، بلسان طلق ذلق، لها عينا
تبصر بهما، ولها لسان تتكلم به، فتقول: إني أمرت بمن جعل مع الله إلها آخر. وبكل

جبار عنيد، وبكل من قتل نفسا بغير نفس، فتنطلق بهم قبل سائر الناس بخمسمائة عام، وقد روى عن عطية عن أبي سعيد موقفاً .

وروى ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن القاسم عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يخرج عنق من النار، فتنطوى عليهم، وتتغيط عليهم، ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بمن دعا مع الله إلهاً آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد، فتنطوى عليهم، فتطرحهم في غمرات جهنم. خرجه الامام أحمد

وهي تنتظرهم عامة بزبائنهم الطبيعيين: ففي مسند أبي يعلى الموصلى التميمي بسنده عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله يقول: إذا جمع الله الناس في صعيد واحد يوم القيامة أقبلت النار يركب بعضها بعضاً، وخزنتها يكفونها، وهي تقول: وعزة ربى ليخلين بينى وبين أزواجى، أو لأغشين الناس عنقا واحداً، فيقولون: ومن أزواجك؟ فتقول: كل متكبر جبار، فتخرج لسانها فتلتقطهم به من بين ظهرائى الناس، فتقذفهم في جوفها، ثم تستأخر، ثم تقبل يركب بعضها بعضاً، وخزنتها يكفونها، وهي تقول: وعزة ربى ليخلين بينى وبين أزواجى، أو لأغشين الناس عنقا واحداً، فيقولون: ومن أزواجك؟ فتقول: كل جبار كفور، فتلتقطهم بلسانها من بين ظهرائى الناس، فتقذفهم في جوفها، ثم تستأخر، ثم تقبل، فيركب بعضها بعضاً، وخزنتها يكفونها، وهي تقول: وعزة ربى ليخلين بينى وبين أزواجى، أو لأغشين الناس عنقا واحداً فيقولون: من أزواجك؟ فتقول كل مختال فخور، فتلتقطهم بلسانها من بين ظهرائى الناس، فتقذفهم في جوفها ثم تستأخر ويقضى الله بين العباد .

وجهان لقوانين الله فى الكون:

إنه إذا كانت النار واقعة كونية عظمية من خلق الله ..

وكان يوم القيامة حدثاً هائلاً من حوادث خلق الله ..

فإنه من الأحداث التى يكون لها وجهان أو أكثر .

وجه من حيث هو نتيجة لقوانين كونية وضعها الخالق لهذا الكون المنظم (والسماء رفعها ووضع الميزان) .

وجه من حيث هو ثواب وعقاب لمن استجاب لمقتضيات هذا الميزان بعد أن أحيط علما .. ﴿ أَلَا تَطْفَؤُا فِي الْمِيزَانِ ﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿ ٨-٩ الرحمن

وجه الحدث ووجه الجزاء

تماما كما لو قيل لقائد سيارة مثلا: إذا سرت بدون ماء في الرادياتير احترقت سيارتك، ولحق الأذى بك وبمن حولك، فإذا به يتصرف كأن لم يسمع هذا التقرير، فاحترقت سيارته .. ولحق الأذى به وبمن حوله .

تلك حقيقة أوردناها من خلال كونها حقيقة طبيعية فيزيائية كونية ..

ونفس هذا الحدث يمكن أن نقدمه بصورة أخرى مشمولة بالإنذار والوعيد .. إذا قيل لصاحب السيارة: حذار من أن تسير بسيارتك بغير ماء في الرادياتير، وإلا كان جزاؤك على هذه المخالفة أن تحترق .. فإذا به يتصرف كأن لم يسمع هذا الإنذار فاحترقت سيارته واحترق بها .. فتلك حقيقة أوردناها من حيث هي حقيقة أخلاقية جزائية .

وهكذا جاء الإنذار بالنار .

قدمه لنا القرآن الكريم من حيث هو حقيقة كونية تندرج تحت النظام الكوني، والسنن الإلهية، وسبيل الله الموزون، يوم يحدث التوازن: لا عن طريق الاختلاط بين الأضداد كما هو الشأن في هذه الحياة الدنيا، ولكن عن طريق الفرز التام ؛ يقول تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴾ ٣٧ الأنفال، ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ خِمْرًا لَّانْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴿ ١٧٨ - ١٧٩ آل عمران .

أخبرنا بها كما يحدث الإخبار دائما بحقائق المستقبل .

ثم أنذرنا بها كما يحصل التحذير دائما من تجاهل حقائق هذا المستقبل .

يقول تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ ٦ التحريم

ويقول تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ٧١ مريم

ولذلك تكون النجاة لمن لجأ منذ البداية إلى صانع هذا الحدث، وصانع النجاة منه، إذ يقول تعالى بعد ما تقدم: ﴿ثُمَّ تُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ ٧٢ مريم

ومن هنا جاء ذكر الصراط ﴿فَاسْتَبِقُوا الصِّرَاطَ﴾ ٦٦ يس

الصراط:

وهو جسر منصوب على متن جهنم يمر الناس منه على قدر أعمالهم

فقى صحيح البخارى بسنده عن الزهري في حديث طويل عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يضرب الصراط بين ظهراي جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان، قالوا: نعم، قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل ثم ينجو).

وفي صحيح ابن حبان بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك، وكلاليب، وخطاطيف، تخطف الناس يمينا وشمالا، وبجنبتيه ملائكة يقولون: اللهم سلم سلم، فمن الناس من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الفرس...، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشى مشيا، ومنهم من يحبو حبوا ومنهم، من يزحف زحفا ". صححه ابن حبان وقال الشيخ شعيب الأرناؤط: إسناده صحيح على شرط مسلم

منطقية سقوط الكافر فى النار:

قد يحلو للبعض أن يتساءل: ما العلاقة النسبية بين ما فعله الكافر فى الدنيا وبين سقوطه فى النار فى الآخرة؟

الجواب على ذلك بكل بساطة البديهية، أوحجية المنطق: إنه كما يقول عنه القرآن الكريم: ﴿لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۖ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ١٦ الليل، ويقول تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ٤٨ طه .

ومن ثم كان التارك المتروك .

ترك الله صانع النجاة وحده، فانطبق عليه قانون الوجود الإلهى، هذا الوجود الموزون: أى ترك الله فكان بهذا الترك متروكا من الله لزوما .

وفى هذا جاء قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ص ٢٦ ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ التوبة ٦٧، أى تركوا الله فصنعوا بهذا الترك أن كانوا متروكين، فالتاركية تضمنت المتروكية لزوما، فكان المتروكية ليست فعلا زائدا على التاركية .

فخلاصة المنطق فى قضية الكافر مع النار أنه المتروك، التارك المتروك، المتروك لعدوه الطبيعى الذى تم تحذيره منه: النار ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ آخر الفرقان .

وفى هذه النقطة بالذات يظهر الفرق جليا بين حالة المؤمن العاصى الذى يتقاضى عذابه ثم تختم حاله بالجنة، وحالة الكافر الذى لا يشم ريحها مهما فعل فى الدنيا مما نتوهمه حسنات .

ذلك: أن مرتكب الكبيرة بمقتضى إسلامه لاجئ إلى الله طالب للنجاة ممن يملكها، سائر فى الطريق التى تُسَلِّكه إليها، فهو مهما يرتكب (متحرك داخل الطريق ..) تذهب الحركة المنحرفة به هنا أو هناك، ولكنه على كل الأحوال " داخل الطريق المؤدية " .

أما الكافر فقد رفض اللجوء إلى الله مبدئياً، وأعطى ظهره للطريق المؤدية، ولم

يطلب النجاة، أو طلبها من لا يملكها، فهو مهما يفعل مما ينفعه أو ينفع الناس، متحرك خارج الطريق، قد يحقق نفعاً هنا أو نفعاً هناك، لكنه على كل الأحوال (خارج الطريق). فكيف يحصل على النجاة من كارثة النار، وهو لم يطلبها، أو لم يطلبها من يملكها؟ (قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) أى لولا توجهكم إليه، والكافر لم يتوجه إليه، فكيف يحصل على مطلب (النجاة) الذى لم يطلبه أصلاً ؛ إذ طلبه لا يتصور إن لم يكن من يملكه؟

إن حادث النار يوم القيامة حادث كونى عام، كما قلنا من قبل - يتعرض له البشر وغيرهم، ﴿لَا تُتَّقَى وَلَا تَنْذَرُ﴾ ١٠١ ﴿لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾، ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ ١٠٢ والله سبحانه وتعالى حذرنا من هذا الحادث، أنذرنا به، وأرشدنا إلى (متجه) النجاة منه، وهو متجه إسلام النفس لله، والكافر أعرض عن هذا المتجه، وولى وجهه عنه ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

والأمر هنا أشبه بما كان فى حادث الفيضان، أنذر نوح عليه الصلاة والسلام الناس به، فمن ركب السفينة كان له النجاة، ومن تولى عنها كيف ينجو من الطوفان؟ إنه خرج بكليته من البقعة الوحيدة التى لا يغرقها الطوفان، خرج بكليته وبارادته، وغامر بلقاء الطوفان، فلما فاجأه الطوفان، كان الطريق مقطوعاً بينه وبين السفينة واتجه إلى ما كان يظنه بقعة من اليابس خارج السفينة، ولم يدر أن البقعة من اليابس مهما ارتفعت فوق الجبل (الجودي) لا نجاة فيها، لأنها لا تقاوم الطوفان ولا تفلت منه، النجاة الوحيدة فى السفينة .

والطوفان فى الآخرة هو النار، والسفينة هى الإيمان، فكيف لمن ولى عن السفينة أن يطلب النجاة من الطوفان، إنه هالك لا محالة بتولىه، هالك لا محالة بفعله .

أما مرتكب الكبيرة فهو أشبه براكب السفينة الذى يرتكب المخالفات وهو على ظهرها، إنه يؤدّب، إنه يُجْزَى على معصيته، إنه يذوق من النار المحيطة بالسفينة، فإذا هو بعد ذلك لم يتغير موقعه الذى اختاره، ولم يخرج من سفينته التى لجأ إليها، وهذا هو انتهاء عقابه واستئناف مقامه المكفول له بالإيمان، مقام الفوز بالجنة، والنجاة من النار .

الإنذار رحمة

إن الإنذار نابع من صفة الرحمة الإلهية ففي صحيح البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، أنه سمع رسول الله يقول: "إنما مثلى ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها "

وهذا لأن خوف العقاب ليس مقصودا لذاته إنما هو سوط يساق به المتوانى عن الطاعة، ومن هنا كانت النار من جملة نعم الله على عباده الذين خافوه واتقوه، ولهذا المعنى عدها الله سبحانه من جملة آلائه على الثقلين فى قوله تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴾ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٤٣ - ٤٧ الرحمن .

وقال سفيان بن عيينة خلق الله النار رحمة يخوف بها عباده لينتهوا أخرجهم أبو نعيم

مراتب الخوف وأحكامه:

من الخوف ما هو واجب، ومنه ما هو مستحب أو محمود، ومنه ما هو مكروه أو غير مستحب: فالقدر الواجب من الخوف هو ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم .

فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثا للنفوس على التشمير فى نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والبعد عن التبسط فى فضول المباحات كان ذلك خوفا محمودا .

فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضا أو موتا، أو هما لازما بحيث يقطع عن السعى فى اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل لم يكن محمودا .

ولهذا كان السلف يخافون على عطاء السلمى من شدة خوفه الذى أنساه القرآن،

وصار صاحب فراش، وهذا لأن خوف العقاب ليس مقصودا لذاته، إنما هو سوط يساق به المتوانى عن الطاعة، والمقصود الأصلي هو طاعة الله عز وجل وفعل مرضيه ومحوباته وترك مناهيه ومكروهاته .

ولا يصح أن ينكر أحد أن خشية الله وهيبته وعظمته في الصدور وإجلاله مقصود أيضا، ولكن القدر النافع من ذلك ما كان عوناً على التقرب إلى الله بفعل ما يحبه وترك ما يكرهه، ومتى صار الخوف مانعاً من ذلك وقاطعاً عنه فقد انعكس المقصود منه، ولكن إذا حصل ذلك عن غلبة كان صاحبه معذوراً .

العبد بين الخوف والرجاء والمحبة:

ومع ذلك فإنه لا بد في حركة المسلم نحو ربه من التفاعل بين الخوف من سخطه من ناحية، والرجاء في مرضاته من ناحية أخرى .

ويقول الإمام أبو حامد الغزالي: (فضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله والاعتزاز بالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل .

ثم إن الخلق في هذا الزمان كلهم الأفضل لهم الخوف، بشرط ألا يخرجهم اليأس إلى ترك العمل، وقطع الطمع من المغفرة، فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل، وداعياً إلى الانهك في المعاصي وليس بخوف، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل، ويكدر الشهوات، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا، ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور، فهذا هو الخوف المحمود: فوق حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث، ودون اليأس الموجب للقنوط) اهـ إحياء علوم الدين

وقال الإمام ابن حجر في فتح الباري في شرحه لصحيح البخاري: ("قوله باب الرجاء مع الخوف" أى استحباب ذلك، فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف، ولا في الخوف عن الرجاء، لئلا يفضى في الأول إلى المكر، وفي الثاني إلى القنوط، وكل منهما مذموم، والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله،

ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجيا عدم المؤاخذه بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور

وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصى وترجو أن تنجو .

وقد أخرج ابن ماجة من طريق عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن أبيه عن عائشة قلت: يا رسول الله " الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة " أهو الذى يسرق ويزنى؟ قال: " لا، ولكنه الذى يصوم ويتصدق ويصلى ويخاف أن لا يقبله منه " . وهذا كله متفق على استحبابه فى حالة الصحة .

وقيل: الأولى أن يكون الخوف فى الصحة أكثر، وفى المرض عكسه، وأما عند الإشراف على الموت فاستحب قوم الاقتصار على الرجاء، لما يتضمن من الافتقار إلى الله تعالى، ولأن المحذور من ترك الخوف قد تعذر، فيتعين حسن الظن بالله، برجاء عفوه ومغفرته، ويؤيده حديث " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله " رواه مسلم فى صحيحه .

وقال آخرون: لا يهمل جانب الخوف أصلا، بحيث يجزم بأنه آمن، ويؤيده ما أخرج الترمذى عن أنس: أن النبى صلى الله عليه وسلم: دخل على شاب وهو فى الموت فقال له كيف تجددك؟ فقال: أرجو الله، وأخاف ذنوبى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الوطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف " .

ويقول الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلى فى كتابه "التخويف من النار (: فأما ما يذكر عن بعض العارفين من عدم خشية النار فالصحيح منه له وجه، قال ابن المبارك أنبأنى عمر بن عبد الرحمن بن مهدي سمعت وهب بن منبه يقول:

قال حكيم من الحكماء: إني لأستحيى من الله عز وجل أن أعبد رجاء ثواب الجنة - أى فقط - فأكون كالأجير السوء، إن أعطى عمل، وإن لم يعط لم يعمل .

وإني لأستحيى من الله أن أعبدته مخافة النار - أى فقط - فأكون كعبد السوء إن رهب عمل وإن لم يرهب لم يعمل. وإنه يستخرج حبه منى ما لا يستخرجه منى غيره، خرجه أبو نعيم بهذا اللفظ .

وكان بعض السلف: يقول من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري^(١)، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد مؤمن .

وسبب هذا أنه يجب على المؤمن أن يعبد الله بهذه الوجوه الثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، ولا بد له من جميعها، ومن أخل ببعضها فقد أخل بعض واجبات الإيمان .

وكلام هذا الحكيم يدل على أن الحب ينبغي أن يكون أغلب من الخوف والرجاء.

وقد قال الفضيل بن عياض: المحبة أفضل من الخوف، ثم استشهد بكلام هذا الحكيم الذى حكاه عنه وهب .

وكذا قال يحيى بن معاذ: حسبك من الخوف ما يمنع من الذنوب، ولا حسب من الحب أبدا، فأما الخوف والرجاء فأكثر السلف على أنها يستويان، لا يرجح أحدهما على الآخر، قاله مطرف والحسن وأحمد وغيرهم، ومنهم من رجح الخوف على الرجاء، وهو محكى عن الفضيل وأبى سليمان الداراني .

ومن هذا أيضا قول حذيفة المرعشى: إن عبدا يعمل على خوف لعبد سوء، وإن عبدا يعمل على رجاء لعبد سوء، كلاهما عندى سواء، ومراده إذا عمل على أفراد أحدهما عن الآخر .

وقال وهيب بن الورد: لا تكونوا كالعامل يقال: له تعمل كذا وكذا فيقول: نعم إن أحسنت لى من الأجر، ومراده ذم من لا يلحظ فى العمل إلا الأجر

(١) المرجئ من يعتقد أنه لا يضر مع الإيمان معصية، والحرورى يعتقد أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد فى النار .

وهؤلاء العارفون لهم ملحظان:

أحدهما: أن الله تعالى يستحق لذاته أن يطاع، ويحب، ويتغى قربه والوسيلة إليه، مع قطع النظر عن كونه يثيب عباده ويعاقبهم كما قال القائل:

هب البعث لم تأتنا رسله * وجاحمة النار لم تضرم

أليس من الواجب المستحق * حياء العباد من المنعم

وقد أشار هذا إلى أن نعمه على عباده تستوجب منهم شكره عليها، وحياءهم منه.

وهذا هو الذى أشار إليه النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا

والملاحظ الثانى: أن أكمل الخوف والرجاء ما تعلق بذات الحق سبحانه، دون ما تعلق بالمخلوقات فى الجنة والنار، فأعلى الخوف خوف البعد والسخط والحجاب عنه سبحانه، كما قدم سبحانه ذكر هذا العقاب لأعدائه على صليهم النار فى قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُولُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ الْمُطَفِّينَ ١٥ -

١٦

وقال ذو النون: خوف النار عند خوف الفراق كقطرة فى بحر لجى، كما أن أعلى الرجاء ما تعلق بذاته سبحانه، من رضاه ورؤيته ومشاهدته وقربه، ولكن قد يغلط بعض الناس فى هذا، فيظن أن هذا كله ليس بداخل فى نعيم الجنة، ولا فى مسمى الجنة إذا أطلقت، ولا فى مسمى عذاب النار، أو فى مسمى النار إذا أطلقت وليس كذلك.

وبقى ها هنا أمر آخر: وهو أن يقال: ما أعده الله فى جهنم من أنواع العذاب المتعلق بالأمور المخلوقة لا يخافها العارفون، كما أن ما أعده الله فى الجنة من أنواع النعيم المتعلق بالأمور المخلوقة لا يحبها العارفون ولا يطلبونه، وهذا أيضا غلط، والنصوص الدالة على خلافه كثيرة جدا ظاهرة، وهو أيضا مناقض لما جبل الله عليه

الخلق من محبة ما يلائمهم وكرهه ما ينافرهم، وإنما صدر مثل هذا الكلام من صدر منه في حال سكره واصطلامه واستغراقه وغيبه عقله، فظن أن العبد لا يبقى له إرادة أصلا، فإذا رجع إليه عقله وفهمه علم أن الأمر على خلاف ذلك .

ونحن نضرب لذلك مثلا يتضح به هذا الأمر إن شاء الله تعالى: وهو أن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة واستدعاهم الرب سبحانه إلى زيارته ومشاهدته ومحضرته يوم المزيد فإنهم ينسون عند ذلك كل نعيم عاينوه في الجنة قبل ذلك، ولا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من نعيم الجنة حتى يحتجب عنهم سبحانه، ويحرقون كل نعيم في الجنة حين ينظرون إلى وجهه جل جلاله، وكما جاء في أحاديث يوم المزيد فلو أنهم ذكروا حينئذ بشيء من نعيم الجنة لأعرضوا عنه، ولأخبروا أنهم لا يريدون في تلك الحال، وكذلك لو خوفوا عذابا ونحوه لم يلتفتوا إليه، وربما لم يستشعروا ألمه في تلك الحال، وإنما يحذرون حينئذ من الحجاب عما هم فيه والبعد عنه، فإذا رجعوا إلى منازلهم رجعوا إلى ما كانوا عليه من التنعم بأنواع النعيم المخلوق لهم، بل يزداد نعيمهم بذلك مع شدة شوقهم إلى يوم المزيد ثانيا .

فهكذا حال العارفين الصادقين في الدنيا إذا تجلى على قلوبهم أنوار الإحسان، واستولى عليها المثل الأعلى، فإن هذا من شواهد ما يحصل لهم في الجنة يوم المزيد، فهم لا يلتفتون في تلك الحال إلى غير ما هم فيه من الأنس بالله، والتنعم بقربه وذكره ومحبه، حتى ينسوا ذكر نعيم الجنة، ويصغر عندهم بالنسبة إلى ما هم فيه، ولا يخافون حينئذ أيضا غير حجبهم عن الله، وبعدهم عنه، وانقطاع مواد الأنس به، فإذا رجعوا إلى عقولهم وسكنت عنهم سلطنة هذا الحال وقهره وجدوا أنفسهم وإرادتهم باقية، فيشتاقون حينئذ إلى الجنة، ويخافون من النار، مع ملاحظتهم لأعلى ما يشاق إليه من الجنة ويخشى منه من النار .

وأیضا فالعارفون قد يلاحظون من النار أنها ناشئة عن صفة انتقام الله وبطشه وغضبه، والأثر يدل على المؤثر، فجهم دليل على عظمة الله وشدة بأسه وبطشه وقوة سطوته وانتقامه في أعدائه، فالخوف منها في الحقيقة خوف من الله وإجلال

وإعظام وخشية لصفاته المخوفة، مع أن الله سبحانه يخوف بها عباده، ويجب منهم أن يخافوه بخوفها وأن يخشوه بخشية الوقوع فيها، وأن يحذروه بالحدز منها، فالخائف من النار خائف من الله، متبع لما فيه محبته ورضاه، والله أعلم). اهـ

ومن هنا صح لنا أن نقول: إن النجاة إنما هي على وتر محسوب في صلة ما بين الخوف والرجاء والمحبة .

التبشير بالنجاة والفوز بالجنة

إن الأمل في النجاة من النار قريب:

وفي رواية للبيهقي في الأربعين الصغرى بسنده عن أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك"، رواه البخارى في الصحيح عن أبي حذيفة عن سفيان

وأسابب النجاة تبدو سهلة المنال: إذا افترضنا إخلاص العبادة والتوبة من الذنوب، وهو افتراض يفرضه لزوم الاتساق مع قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَنْعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم بسنده عن أبي أيوب أنه قال "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "لولا أنكم تذنوبون لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر الله لهم" وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "لله أشد فرحا بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها" وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن ماجة في سننه بسنده عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم"، ويسنده عن أبي عبيدة بن عبد الله عن أبيه قال: قال رسول الله "التائب من الذنب كمن لا ذنب له"

عندئذ تتوافد نسائم الرحمة وجاذبات النجاة من أقرب درب، وأيسر سبب، وأسهل طريق .

ومن دروب الرحمة تلك .. الاستعاذة بالله من النار:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أُوْنِتُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٦ آل عمران.

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطِلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۚ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝١٨﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝١٩﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ۝٢٠﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ۝ آل عمران ١٩١ - ١٩٥

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذكر الملائكة الذين يلتمسون مجالس الذكر وفيه: إن الله عز وجل يسألهم، وهو أعلم بهم، فيقول مم يتعبدون؟ فيقولون: من النار، فيقول: وهل رأوها؟ قالوا: لا والله ما رأوها، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا، وأشد منها مخافة، قال: فيقول إني أشهدكم أني قد غفرت لهم .

وخرج الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما من مسلم يسأل الله الجنة ثلاثا إلا قالت الجنة " اللهم أدخله الجنة "، ومن استجار من النار ثلاثا قالت النار: " اللهم أجره من النار " .

وخرج البزار وأبو يعلى الموصلى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار: يا رب إن عبدك فلانا استجار منى فأجره، ولا سأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب إن عبدك فلانا سألنى فأدخله الجنة .

إنه أثر إخلاص العبودية والتقوية .

ومن دروبها: دموع الندم والأشواق

ففى كتاب التخويف من النار لابن رجب فى الباب الرابع فى "أن البكاء من خشية النار ينجى منها، وأن التعوذ بالله من النار يوجب الإعادة منها": أنه قد تكاثرت النصوص فى أن البكاء من خشية الله يقتضى النجاة منها، والبكاء خوفا من نار جهنم هو البكاء من خشية الله، لأنه بكاء من خشية عقاب الله، وسخطه، والبعد عنه، وعن رحمته، وجواره ودار كرامته:

فقد روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع) أخرجه النسائى والترمذى وقال صحيح .

وعن ابن عباس قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: عينا لا تمسهما النار: عين بكت فى جوف الليل من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله عز وجل) أخرجه الترمذى وقال حسن .

وعن أبى ریحانة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "حرمت النار على عين دمعت أو بكت فى جوف الليل من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله" وذكر عينا ثالثة، أخرجه الإمام أحمد وهذا لفظه، والنسائى، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه الجوزجاني ولفظه: "حرمت النار على عين سهرت بكتاب الله، وحرمت النار على عين دمعت من خشية الله، وحرمت النار على عين غضت عن محارم الله، أو فقئت فى سبيل الله ."

وعن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه دموع ولو كانت مثل رأس الذباب من خشية الله ثم تصيب شيئا من حر وجهه إلا حرمه الله على النار"، أخرجه ابن ماجه، وقد روى موقوفا على من دون ابن مسعود، وفى الباب أحاديث أخر فى المعنى مسندة ومرسلة

وفيه أنه كان عبد الواحد بن زيد يقول: يا إخوانه ألا تبكون شوقاً إلى الله عز وجل؟ ألا إنه من بكى شوقاً إلى سيده لم يجرمه النظر إليه. يا إخوانه ألا تبكون خوفاً من النار؟ ألا إنه من بكى خوفاً من النار أعاده الله منها .

وفيه عن فرقد السبخي: قال قرأت في بعض الكتب أن الباكي على الجنة كُشف له الجنة إلى ربها، فتقول: يا رب أدخله الجنة كما بكى على، وإن النار لتستجير له من ربها، فتقول: يا رب أجره من النار كما استجار مني وبكى خوفاً من دخولي.

إنه أثر إخلاص العبودية والتوبة .

ومن دروبها: شفاعة الولدان:

ففي مجمع الزوائد للهيثمي عن محمد بن سيرين قال: حدثنا امرأة كانت تأتينا، يقال لها ماوية، كانت ترزأ في ولدها، فأنت عبيد الله بن معمر القرشي ومعه رجل من أصحاب النبي، فحدث ذلك الرجل: أن امرأة أتت النبي بابن لها، فقالت يا رسول الله: ادع الله تبارك وتعالى أن يبقيه لي، فقد مات لي قبله ثلاثة، فقال: أمنت أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: أمنت أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: أمنت أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: جنة حصينة. رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح خلا ماوية شيخة ابن سيرين .

وعن امرأة يقال لها رجا قالت: كنت عند النبي إذ جاءته امرأة بابن لها، فقالت: يا رسول الله ادع الله لي فيه بالبركة، فإنه قد توفي لي ثلاثة، فقال رسول الله: أمنت أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: جنة حصينة رواه أحمد، والطبراني في الكبير إلا أنه سماها رجما ورجاله رجال الصحيح

وعن حبيبة أنها كانت عند عائشة رضي الله عنها فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى دخل عليها، فقال: ما من مسلمين يموت بينهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا جئ بهم يوم القيامة حتى يوقفوا على باب الجنة، فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فيقولون: حتى يدخل آبائنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم، رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، خلا يزيد بن أبي بكرة ولم أجد من ترجمه، وأعاده بإسناد آخر ورجال ثقات وليس فيه يزيد بن أبي بكرة والله أعلم

وعن زهير بن علقمة قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله قد مات لي ابنان منذ دخلت في الإسلام سوى هذا، فقال النبي لقد احتظرت من النار بحظار شديد. رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

وفيمن مات له ولدان أو ولد:

فيما رواه الهيثمي في مجمع الزوائد: بسنده عن الحارث بن قيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من مسلمين يموت لهما أربعة أولاد إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته، قالوا: يا رسول الله وثلاثة؟ قال: وثلاثة، قالوا واثنان؟ قال: واثنان، رواه عبد الله بن أحمد، والطبراني في الكبير، وأبو يعلى ورجاله ثقات.

وعن بريدة قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم، فبلغه أن امرأة من الأنصار مات ابن لها، فجزعت عليه، فقام النبي ومعه أصحابه فلما بلغ باب المرأة، قيل للمرأة: إن نبي الله يريد أن يدخل يعزيها، فدخل رسول الله، فقال: أما أنه بلغني أنك جزعت على ابنك، قالت: يا نبي الله ما لي لا أجزع، وأنا رقوب لا يعيش لي ولد، فقال رسول الله: إنها الرقوب الذي يعيش ولدها، إنه لا يموت لامرأة مسلمة أو امرئ مسلم نعمة - قال أو ثلاثة - من ولده، يحتسبهم إلا وجبت له الجنة، فقال عمر وهو عن يمين النبي: بأبي أنت وأمي: واثنين؟ قال نبي الله، واثنين، رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

وعن زهير ابن أبي علقمة قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله بابتها، فقالت: يا رسول الله إنه قد مات لي ابنان سوى هذا، فقال رسول الله: لقد احتظرت من دون النار بحظار شديد، رواه البزار ورجاله ثقات.

وعن أبي ثعلبة الخشني قال: توفي لي ولدان، فقلت: يا رسول الله توفي لي ولدان، فقال رسول الله: "من مات له ولدان أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم"، رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح

و فيمن مات له ولد واحد: عن جابر قال سمعت رسول الله يقول: من مات له ثلاثة من الولد فاحتسبهم دخل الجنة، قال: قلنا: يا رسول الله واثنان؟ قال: واثنان، قال محمود فقلت لجابر أراكم لو قلتم واحدا لقال واحدا؟ قال: وأنا والله أظن ذاك رواه أحمد ورجاله ثقات

وعن قرة بن إياس أن رجلا كان يأتي النبي ومعه ابن له، فقال له النبي أتجبه؟ قال: نعم يا رسول الله، أحبك الله كما أحبه، ففقده النبي فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ قالوا: يا رسول الله مات، فقال النبي لأبيه: ألا تحب أن لا تأتي بابا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟ فقال رجل يا رسول الله أله خاصة أم لكلنا؟ قال: بل لكلكم، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح

وعن بعض أصحاب النبي أنه سمع النبي يقول: إنه يقال للولدان يوم القيامة: أدخلوا الجنة، فيقولون: يا رب حتى تدخل آباؤنا وأمهاتنا؟ قال: فيأبون، قال: فيقول الله عز وجل: مالي أراهم محبطين؟ أدخلوا الجنة، قال: فيقولون: يارب آباؤنا؟ فيقول: أدخلوا الجنة أنتم وآباؤكم، رواه أحمد ورجاله ثقات .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تعدون الرقوب فيكم؟ قالوا: الذي لا ولد له، قال: بل الذي لا فرط له، رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح^(١) .

ذلكم أثر إخلاص العبودية والتوبة .

وقد تأتي النجاة بشفاعة الشافعين المأذونين:

ففي التخويف من النار لابن رجب:

في الأحاديث الصحيحة أن الموحيدين يَمرون على الصراط فينجو منهم من ينجو، ويقع منهم من يقع في النار، فإذا دخل أهل الجنة فقدوا من وقع من إخوانهم الموحيدين في النار، فيسألون الله عز وجل إخراجهم منها، وفي هذا روى زيد بن

(١) الولد يشمل الابن والبنات .

أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث طويل: قال " حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذى نفسى بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله فى استيفاء الحق.. من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار، يقولون: ربنا إنهم كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى أنصاف ساقيه، وإلى ركبتيه، فيقولون: ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول لهم: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه نصف مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجوه خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا بإخراجه أحدا فيقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا فيقولون ربنا لم نذر فيها خيرا، وكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقروا إن شئتم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء ٤٠: يقول الإمام ابن رجب: خرجاه فى الصحيحين ولفظه لمسلم.

وتأتى النجاة من درب التوحيد:

فيقول الله عز وجل كما جاء فى بقية الحديث السابق: "شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج بها قوما لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حمى، فيلقىهم فى نهر فى أفواه الجنة، يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل .. خرجاه فى الصحيحين ولفظه لمسلم

والمراد بقوله " لم يعملوا خيرا قط ": من أعمال الجوارح وإن كان أصل الإيمان معهم، وفقا لما جاء فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه فيما جاء فى صحيح البخارى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال رجل لم يعمل خيرا قط .. فإذا مات

فحرقوه، واذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت؟ قال: من خشيتك يا رب، فغفر له) ووفقا لما جاء في الحديث في صحيح البخارى بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)

ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الشفاعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أقول يا رب ائذن لي فيمن يقول لا إله إلا الله" فيقول "وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله" خرجاه في الصحيحين

وعند مسلم فيقول "ليس ذلك لك - أو ليس ذلك إليك -" وهذا يدل على أن الذين يخرجهم الله برحمته من غير شفاعة مخلوق هم أهل كلمة التوحيد، الذين لم يعملوا معها خيرا قط بجوارحهم والله أعلم

وروى أبو الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يوضع الصراط بين ظهرائي جهنم عليه حسك كحسك السعدان، ثم يستجيز الناس، فنادى مسلم ومجروح به ناج، ومحتبس منكوس فيها، فإذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وتفقد المؤمنون رجالا في الدنيا كانوا يصلون بصلاتهم، ويزكون زكاتهم، ويصومون صومهم ويحجون حجهم، ويغزون غزوهم، فيقولون: أى ربنا عباد من عبادك، كانوا معنا في الدنيا يصلون بصلاتنا، ويزكون زكاتنا، ويصومون صومنا، ويحجون حجنا، ويغزون غزونا ولا نراهم، فيقول عز وجل: اذهبوا إلى النار فممن وجدتموه فيها فأخرجوه، قال: فيخرجونهم وقد أخذتهم النار على قدر أعمالهم، فمنهم من أخذته إلى قدميه، ومنهم من أخذته إلى ركبتيه، ومنهم من أخذته إلى أذنيه، ومنهم من أخذته إلى عنقه، ولم تغش الوجوه، قال

فيستخرجونهم، ثم يطرحون في ماء الحياة، قيل: يا نبي الله وما ماء الحياة؟ قال: غسل أهل الجنة، قال: فينبتون فيها كما تنبت الزرعة في غشاء السيل، ثم تشفع الأنبياء في كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله مخلصا فيستخرجونهم منها، ثم يتحنن الله برحمته على من فيها فما يترك فيها عبدا في قلبه مثقال ذرة من الإيثار إلا أخرجه منها، أخرجه الحاكم، وقال صحيح الإسناد .

وخرجاه في الصحيحين من حديث مالك عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يدخل أهل الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله عز وجل: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة أو حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها، قد اسودوا، فيلقون في نهر الحياة - أو الحياة شك مالك - فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية، ولفظه للبخاري .

وعند مسلم " فيخرجون منها حمما قد امتحشوا " .

وفي الصحيحين أيضا عن الزهري عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال " يجمع الله الناس يوم القيامة، فذكر الحديث بطوله، وفيه ذكر جواز الناس على الصراط، ثم قال "حتى إذ فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل الكبائر من النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن دخل النار، يعرفون بأثر السجود، تأكل النار ما من ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار، قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون منه كما تنبت الحبة في حميل السيل " وذكر بقية الحديث

وخرج مسلم من حديث يزيد الفقيرو عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارة وجوههم حتى يدخلوا الجنة " .

وخرج أيضا من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله

وسلم قال: "أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأما هم الله إماتة، حتى إذا كانوا فحما أذن في الشفاعة، فجيء بهم ضبابير ضبابير، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل لأهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة في حميل السيل"

قال بعض العلماء: وظاهر الحديث يدل على أن هؤلاء يموتون حقيقة، وتفارق أرواحهم أجسادهم، ويرى بعضهم أن المراد إماتة ما كما يوحى بذلك قوله صلى الله عليه وسلم (أما هم إماتة)، أى نوع إماتة والله اعلم .

ويدل على ذلك ما خرجه البزار من حديث عبد الله بن رجاء حدثنا سعيد ابن مسلمة أخبرنى موسى بن جبير عن أبى أمامة بن سهل عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال "إن أدنى أهل الجنة حظا - أو نصيبا - قوم يخرجهم الله من النار، فيرتاح لهم الرب تعالى إنهم كانوا لا يشركون بالله شيئا، فينبذون بالعراء، فينبتون كما تنبت البقلة، حتى إذا دخلت الأرواح أجسادها قالوا: ربنا كما أخرجتنا من النار وأرجعت الأرواح إلى أجسادها فاصرف وجوهنا عن النار فتصرف وجوههم عن النار".

وروينا - والكلام للحافظ ابن رجب - من طريق محمد بن معاوية حدثنا حازم عن الحسن قال: أهل التوحيد في النار لا يقيدون، فتقول الخزنة بعضهم لبعض: ما بال هؤلاء يقيدون وهؤلاء لا يقيدون؟ فناداهم مناد: إن هؤلاء كانوا يمشون في ظلام الليل إلى المساجد .

وقال مروان بن معاوية عن مالك بن أبى الحسن عن الحسن قال " يخرج رجل من النار بعد ألف عام " قال الحسن " ليتنى ذلك الرجل "

ذلكم أثر الإخلاص فى العبادة، أو التوبة .

وتأتى النجاة من درب حسن الظن بالله .

ففى التخويف من النار أيضا: قال أحمد بن أبى الحوارى دخلت على أبى سليمان، وهو يبكى، فقلت: ما يبكيك؟ قال: لئن طالبنى بذنوبى لأطالبنه بعفوه،

ولئن طالبني ببخلى لأطالبنه بجوده، ولئن أدخلني النار لأخبرن أهل النار أني كنت أحبه

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله تعالى، بإسناده عن علي بن بكار، أنه سئل عن حسن الظن بالله: قال أن لا يجمعك والفجار في دار واحدة .

وعن سلمان بن الحكم بن عوانة أن رجلا دعا بعرفات فقال: لا تعذبنا بالنار بعد أن أسكنت توحيدك قلوبنا، قال: ثم بكى وقال: ما أخالك تفعل بعفوك؟ ثم بكى، وقال: ولئن فعلت فبذنوبنا، لا تجمعن بيننا وبين قوم ظالمين عاديانهم فيك. وعن حكيم بن جابر قال: قال إبراهيم عليه السلام: اللهم لا تشرك من كان يشرك بك ومن كان لا يشرك بك .

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني أبو حفص الصيرفي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا تلا ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ النحل ٣٨ قال: ونحن نقسم بالله جهد أيماننا ليعثن الله من يموت، أتراك تجمع بين القسمين في دار واحدة؟ ثم بكى أبو حفص بكاء شديدا .

وروى أبو نعيم بإسناده عن عون بن عبد الله قال: ما كان الله لينقذنا من شر ثم يعيدنا فيه ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ آل عمران ١٠٣، وما كان الله ليجمع بين أهل القسمين في النار ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ النحل ٣٨، ونحن نقسم بالله جهد إيماننا ليعثن الله من يموت

وقال محمد بن إسحاق السراج حدثنا حماد بن المؤمل الكلبي حدثني بعض أصحابنا عن ابن السماك قال لما طلبني هارون الرشيد قال: تكلم، وادع . فدعوت بدعاء أعجبه، وقلت في دعائي: اللهم إنك قلت ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ اللهم إنا نقسم بالله جهد إيماننا لتبعثن من يموت، أفتراك يا رب تجمع بين أهل القسمين في مكان واحد؟ وهارون يبكي

وتأتى النجاة من أفق الرحمة المطلقة لمن يتوجه إليه سبحانه .

وإنها لرحمة الخالق بها صنعت يده من عباده الراجين

فمن حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه مما رواه الشيخان: أنه قدم على النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقى، إذ وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لنا " أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا وهى تقدر على ألا تطرحه، فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها " متفق عليه .

وفى التخويف من النار بسنده عن أنس، قال: مر النبي ونفر من أصحابه وصبى فى الطريق، فلما رأت أم الصبى القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى، وتقول ابنى ابنى، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار، قال فخفضهم النبي وقال: ولا والله ما يلقى حبيبه فى النار. رواه أحمد والبخاري بنحوه وأبو يعلى ورجالهم رجال الصحيح .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: بلغنى أن رسول الله كان فى بعض مغازيه، فبينما هم يسيرون إذ أخذوا فرخ طير، فأقبل أحد أبويه حتى سقط فى أيدى الذى أخذه، فقال رسول الله: ألا تعجبون لهذا الطير أخذ فرخه فأقبل حتى سقط فى أيديهم؟ والله الله أرحم بخلقه من هذا الطير بفرخه. رواه البخاري ورجال إحداهما رجال الصحيح

وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يكون قوم فى النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يرحمهم الله فيخرجهم منها، فيكونون فى أدنى الجنة فيغتسلون فى نهر يقال له الحيوان، يسميهم أهل الجنة الجهنميين، لو ضاف أحدهم أهل الجنة لعرضهم وأطعمهم وسقاهم وحفهم، ولا أظنه إلا قال ولزوجهم، لا ينقصه ذلك شيئا. رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح غير عطاء بن السائب وهو ثقة ولكنه اختلط .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: آخر من

يخرج من النار رجلاً، يقول الله لأحدهما: يا ابن آدم ما أعددت هذا اليوم؟ هل عملت خيراً قط؟ أو رجوتني؟ فيقول: لا يا رب، فيؤمر به إلى النار وهو أشد أهل النار حسرة، ويقول للآخر: هل عملت خيراً قط؟ أو رجوتني؟ فيقول: نعم يا رب، كنت أرجو إن أخرجتني أن لا تعيدني فيها، وهو آخر من يدخل الجنة. رواه أحمد، والبزار وزاد "هل خفتني" ورجاله رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو حسن الحديث

وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن عبداً لينادى في النار ألف سنة: يا حنان يا منان، قال: فيقول الله لجبريل عليه السلام: اذهب فائتني بعبدي هذا فينطلق جبريل، فيجد أهل النار منكبين يبكون، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره، فيقول: اتنى به فإنه في مكان كذا وكذا، فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل، فيقول: يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا رب شر مكان وشر مقيل، فيقول: ردوا عبدي، فيقول: يا رب ما كنت أرجو إذا أخرجتني منها أن تعيدني فيها، فيقول: دعوا عبدي. رواه أحمد وأبو يعلى ورجاهما رجال الصحيح غير أبي ظلال وضعفه الجمهور ووثقه ابن حبان .

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله: إن الله عز وجل خلق مائة رحمة، رحمة منها قسمها بين الخلائق، وتسعة وتسعين إلى يوم القيامة. رواه الطبراني والبزار وإسنادهما حسن

وعن الحسن يعنى البصرى قال: بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله مائة رحمة، وإنه قسم رحمة واحدة بين أهل الأرض، فوسعتهم إلى آجالهم، وادخر عنده تسعة وتسعين لأوليائه يوم القيامة)

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثل ذلك، رواه والذي قبله أحمد، ورجال الجميع رجال الصحيح

وعن معاوية بن حيدة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله عز وجل خلق مائة رحمة فرحمة بين خلقه يترامون بها وادخر لأوليائه تسعة وتسعين). رواه الطبراني وفيه نحيسر بن تميم وهو مجهول وبقية رجاله ثقات

وعن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قسم ربنا رحمته مائة جزء، فأُنزل منها جزءاً في الأرض، فهو الذي يتراحم به الناس والطيور والبهائم، وبقيت عنده مائة رحمة إلا رحمة واحدة لعباده يوم القيامة) رواه الطبراني وإسحق بن يحيى لم يدرك عبادة وبقيّة رجاله رجال الصحيح غير إسحق بن يحيى .

وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو تعلمون قدر رحمة الله لا تكلمتم) أحسبه قال (عليها) رواه البزار وإسناده حسن .

في صحيح البخاري بسنده عن الزهري في حديث طويل عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث طويل: (حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله، فيخرجونهم ويعرفونهم بأثار السجود، وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار، فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود، فيخرجون من النار، قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار، فيقول: يا رب اصرف وجهي عن النار، قد قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها، فيقول: هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطى الله ما يشاء من عهد وميثاق، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكّت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا رب قدّمنى عند باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذى كنت سألت؟ فيقول: يا رب، لا أكون أشقى خلقك، فيقول: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسأل غير ذلك، فيعطى ربه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا رب أدخلنى الجنة فيقول الله: ويحك يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذى أعطيت؟ فيقول: يا رب لا تجعلنى أشقى خلقك، فيضحك الله عز وجل

منه، ثم يأذن له في دخول الجنة، فيقول: تمن، فيتمنى، حتى إذا انقطعت أمنيته قال الله عز وجل: من كذا وكذا، أقبل يذكره ربه، حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه. قال أبو سعيد الخدرى لأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما: إن رسول الله قال: قال الله: لك ذلك وعشرة أمثاله، قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله إلا قوله لك ذلك ومثله معه، قال أبو سعيد إنى سمعته يقول ذلك لك وعشرة أمثاله .

وإذا كان الإنذار بمتعلقاته يوجه أنظار البشر إلى خطر النار ليخلصوا أنفسهم منها فإن شذرات من أوصاف الجنة تجذب إليها - من بعد - وجدان عباد الله المخلصين ليكون بها نجاتهم من النار:

يقول تعالى فى تبشير المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا حَزَنُوهُمْ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ الأنبياء

ويقول تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ النمل.

ويقول تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ هُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٠٥﴾ فَوَكَّهٌ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿١٠٦﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٠٧﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿١٠٨﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿١٠٩﴾ بَيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿١١٠﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿١١١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَنْصَرَةٌ مِنَ الظَّرْفِ عِينٌ ﴿١١٢﴾ كَأَنَّهُمْ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿١١٣﴾﴾ ٤٩-٤٠ الصافات

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١١٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿١١٥﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿١١٦﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿١١٧﴾ خَتَمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿١١٨﴾ وَمَرَاجَةٌ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿١١٩﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ ٢٢- ٢٨ المطففين .

ويقول تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿١٢١﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
 ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْغُرُبَاتِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾
 هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا
 جَنَّاتٍ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ
 وَنَخْلٌ وَرُومَانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتُ حِسَانٍ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾
 لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى
 رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ
 ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ - ٤٦ - الرحمن

نعيم الجنة ماديًا وروحيا

وإذا كان بعض المتفهبين من المبشرين والمستشرقين وغيرهم يصطنع لهجة
 التعالي على هذه الأنواع من النعيم بينما هو في حياته الشخصية عبد الدينار والدرهم
 والملذات الحسية، يسعى إليها ويقتنصها كلما أمكنه، فإننا بعد أن نسجل بذلك
 صدور هذه اللهجة عن موقف نفاقى مكشوف، نشير إلى ما جاء بالعقيدة الإسلامية
 من أن هذه الأنواع من النعيم ليس السقف لأنواع النعيم في الآخرة، إنما هي لمن
 يطلبها، تحريراً لهم من أى شعور بالحرمان ذاقوه من قبل، تصديقا لقوله تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ٢٢ الطور، ولقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا
 يَتَخَيَّرُونَ﴾ ٢١ الواقعة، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي
 ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ﴾ ٢٢ وقوكة مِمَّا يَشْتَهُونَ ٤٢ المرسلات ولقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا
 أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ١٠٢ الأنبياء، ولقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ

أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ فصلت، ولقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ
الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ٧١ الزخرف .

ومع ذلك فإن هذه الأنواع من النعيم إنما تأتي هكذا في ظاهرها- تأنيسا
لطالبيها- ولكنها عند التناول يجدونها من نوع نعيم الجنة، لا من نوع نعيم الدنيا،
وهو شيء مختلف، وذلك معنى قوله تعالى: (قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأوتوا
به متشابهاً) ٢٥ البقرة، مضموماً إليه قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى
بسنته، بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله
تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على
قلب بشر، واقروا إن شئتم " فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما
كانوا يعملون ") قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

رؤية الله تعالى

وليس ذاك هو السقف

ولكن تأتي ذروة النعيم في رؤية الله تعالى

يقول تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ القيامة

ولا يصح تأويل ناظرة بمنتظرة كما يفعل بعض المتكلمين لأن النظر بمعنى
الانتظار يتعلق بالقلب والخواطر لا بالعين كما في الآية كما يشير إليه قوله تعالى
(وجوه ..).

ولقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: وفي تفسيره هذه الآية نقل
الإمام القرطبي ما رواه مسلم بسنده عن صهيب رضى الله عنه، عن النبي صلى الله
عليه وسلم مرفوعاً أنه قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئاً
أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال:
فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) وفي
رواية (وزاد: ثم تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾) يونس ٢٦

ولقوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُوبُونَ﴾ يقول الإمام الشافعى: "لما
حجب الكفار في السخط دل على أن أولياءه يرونه في الرضا"

وفي صحيح البخارى بسنده عن الزهرى فى حديث طويل قال: أخبرنى سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثى أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تمارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه حجاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فهل تمارون فى الشمس ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك .

وتشبيه الرؤية برؤية البدر والشمس من حيث الوضوح التام والتجلى الكامل الذى لا شك فيه ولا ريب .

ومنها قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ هذا يبين أن جميع الأبصار لا تدركه ومفهومه أن بعضها يدركه ^(١)

ويفرق بعضهم بين الرؤية فهى جائزة، والإدراك فهو لا يجوز، للفرق بينهما من حيث إن الرؤية لا تقتضى الإحاطة، والإدراك يقتضيه ^(٢)

وفى بصائر ذوى التمييز للفيروزابادى (تسمى الرؤية إدراكا إذا أحاط البصر بالمرئى بجميع حدوده)

وعن ابن عباس فى تفسير الآية: لا يحيط بصر أحد بالملك .
وهذه الرؤية مجمع عليها عند أهل السنة فى الجملة، وإن اختلف العلماء فى بعض جزئياتها وأفرادها ومكانها .

والحق أنه يستوى فى ذلك الرجل والمرأة لعموم النص .
ويقول الإمام الغزالى: (إن الله تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار .. مرئى بالعين والأبصار، فى الدار الآخرة دار القرار) ^(٣)

(١) التبصير فى الدين لأبى المظفر الإسفرايينى ت ٤٧١، بتعليق الشيخ محمد بن زاهد بن الحسن الكوثرى ط مطبعة الأنوار عام ١٩٤٠ م ص ٩٤

(٢) فى لسان العرب: الدَّرَكُ اللحاق، والدَّرَكُ اسم من الإدراك، مثل اللُّحَق، والدَّرَكُ اللحاق والوصول إلى الشيء، والدَّرَكُ: لحاق الفرس الوحش، وفرس دَرَك الطريدة يدركها، والدريكة الطريدة، والمتدركة غير المتواترة، والمتواتر الشيء الذى يكون هنيهة ثم يجيء الآخر، فإذا تتابعت فليست متواترة، والدَّرَكُ والدَّرَكُ أقصى قعر الشيء، وقال أبو عدنان: يقال: أدركوا الركية إدراكا، ودَرَك الركية قعرها الذى أدرك فيه الماء . اهـ

(٣) كتاب العقائد من كتاب إحياء علوم الدين

لقد جاء عن بعض الصحابة رضى الله عنهم كما نقل القرطبي عن المبارك متصلا أن أبا موسى الأشعري رضى الله عنه قال على منبر البصرة: إن الله عز وجل يبعث ملكا إلى أهل الجنة فيقول: هل أنجزكم الله وعده؟ فينظرون الحلى والحلل والآثار والأنهار والأزواج المطهرة فيقولون: نعم قد أنجزنا الله ما وعدنا فيقول الملك: هل أنجزكم وعدكم؟ ثلاث مرات، فلا يفقدون شيئا مما وعدوا فيقولون: نعم فيقول قد بقى لكم شيء، عن الله تعالى يقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يونس ٢٦، ألا إن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى الله تعالى.^(١) ومن هنا سمى يوم الجمعة في الجنة يوم المزيد لما يحدث فيه للمؤمنين من رؤية الله تعالى .

وفى مسند الإمام الشافعى رضى الله عنه عن عبد الله بن عمير أنه سمع أنس بن مالك يقول: أتى جبريل بمرآة بيضاء فيها وكرة إلى النبی صلى الله عليه وسلم، فقال النبی صلى الله عليه وسلم: ما هذه؟ قال: هذه الجمعة فضلت بها أنت وأمتك، فالناس لكم فيها تبع، اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، وفيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله تعالى بخير إلا استجيب له، وهو عندنا "يوم المزيد" قال النبی صلى الله عليه وسلم: يا جبريل ما يوم المزيد؟ قال: إن ربك اتخذ في الفردوس واديا أفيح، فيه كذب مسك فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء من ملائكته وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبیین، وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب، مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون فجلسوا من ورائهم على تلك الكتب، فيقول الله لهم: أنا ربكم قد صدقتكم وعدى، فسلوني أعطكم، فيقولون: ربنا نسألك رضوانك، فيقول قد رضيت عنكم، ولكم على ما تمنيت، ولدى مزيد، فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه، ربهم من الخير وهو اليوم الذى استوى فيه ربكم على العرش وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة اهـ .

والله أعلم .

(١) أنظر شرح الغنمی للعقيدة الطحاوية ص ٧٠-٧١